رحلتان إلى الهند
(الجزء الثاني)*
للشيخ محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني(رح)

١٠- في مدينة ديو بند:

ثم ركبنا بابور (قطار) ديوبند عند فجر يـــوم الثلاثـــاء، في درجته الثانية بثمن قدره لكل واحد خمس روبيات مع عشر آنـة. وفي الحين تحرك بنا، وبعد أربع ساعات ونصفها وصلنا مدينة ديو بند.

فإذا هي بليدة صغيرة يغلب على أهلها البداوة وقلة الحضـارة. ولا شيء بها يستحق الذكر والالتفات سوى مدرستها الشهيرة الذكر الكبيرة المسماة" دار العلوم". فركبنا عربة أوصلتنا إليها. فإذا بلوحـــة كبيرة، على بابها قد كتب فيها بقلم عريض بالعربية:"قال عليه الصلاة والسلام:إنما أنا قاسم والله المعطي. مدرسة إسلامية عربية أسست سنة ١٢٨٣هـــ". والحديث المذكور إشارة إلى اسم مؤسس هذه المدرسـة ووالد مديـــرها الحالي العلامة الكبير المحدّث الشهير مولانـــا محمـــد

---

* — لقد نشرنا في العدد الماضي الجزء الأول من الحديث عن هاتين الرحلتـــين للشـــيخ محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله وها نحن ننشـــر الجـــزء الثـــاني والأخير منه — التحرير.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

قاسم النانوتوي، الملقب بالمجدّد، رحمة الله عليه . وهذه المدرسة فيها ثمانمائة طالب، تختم فيها الكتب الست كل سنة والفقه والآلات كلها. وهؤلاء الطلبة يأكلون بها ويشربون على نفقة المدرسة. ولا تقبل دخلا من الإنجليز، وإنما تأتيهم الصلات والخيرات من أهل الخير والخِيَرة من الناس. وعدد مدرّسيها أربعون أستاذا، كلهم علماء أجلاء مؤلفون.

ولما دخلنا المدرسة المذكورة، وتعرفوا بنا، ذهبوا بنا لغرفة المدير، مولانا حافظ محمد أحمد، ومحلّ جلوسه ومجتمع مدرّسي المدرسة. فجلسنا هناك برهة، فإذا بالمدير المذكور قد أتى. فإذا هو رجل كبير السن،عمره نحو الثمانين، قصير القامة، أشيب حسن الخلق، فقمنا كالحاضرين إجلالا له،وقبلنا يده وجلسنا.فتعرفنا إليه، فرحب بنا وهش وبش. ثم طلبنا منه أن يسمعنا حديث الأولية. قال: " أجل هذا وقته!". ثم أملاه علينا في ورقة كتبها له نائبه. فلم ندر ما الحكمة في ذلك. ثم طلبنا منه الإجازة به وبغيره من العلوم والفنون والأذكار، فأجازنا لفظا ووعدنا بكتابتها. ثم أمر لنا بشاي فحضر فشربناه. ثم بعد ذلك كتب لنا الإجازة وهذا نصها:

" بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين كما هو بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، ونعوته وسماته الكبرى، الرحمن الرحيم الذي استوى برحمته على العرش، فعمّت رحمته من في الأرض ومن في السماء، وتناولت الثريا إلى ما تحت الثرى. فهو الله العزيز، وهو الرحمن الرحيم، أيامّا تدعوا فله الأسماء الحسنى، وله الحضرات المنيعة من اللاهوت والجبروت والرحموت، وله المثل الأعلى. والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله نبي الرحمة، سيدنا محمد المصطفى، سيد الأكوان، وخير الخليقة، آدم و من سواه تحت لوائه يوم العرض

الأكبر، وله الإمامة الكبرى في المسجد الأقصى، وعلى آله وأصحابه الذين حازوا العلى وفازوا بالهدى والتقى. أما بعد فقد ورد علينا بدار العلوم الديوبندية الهندية، السيد النبيل والحسيب النسيب السيد محمد الزمزمي، نجل المولى الهمام والمحدّث القمقام سيد محمد بن جعفر الكتاني الفاسي المدني، صاحب الآيات والآثار الشريفة، ومصنف التصانيف العالية المنيفة، وطلب منّي إسناد الحديث المسلسل بالأولية " الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". فحدثته عن شيخي السيد المولى الحافظ المحدّث الفقيه القطب الرباني، مولانا رشيد أحمد، رحمه الله تعالى، عن الإمام العارف الحجة المحدّث الفقيه، مولانا الشاه عبد الغني المجددي الدهلوي، ثم المهاجر المدني، بإسناده المثبت في " **اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني**". والله أسأل أن يرزقه لذة النظر إلى وجهه، إنه بذلك جدير، وهو الموفق، وبه نستعين. وأجزته إجازة عامة مطلقة بما تجوز لي روايته، وأنا الأحقر محمد أحمد الديوبندي ابن مولانا محمد قاسم النانوتوي، مؤسس دار العلوم الديوبندية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة. في ٢٩ شعبان عام ١٣٤٣" والطابع بعد التاريخ غير أنه رغما عن تكرر الطبع به لم تظهر كتابته.

ثم جاء بعض أكابر مدرسي المدرسة، كرئيس مدرسيها مولانا محمد أنور شاه ونائب المدير مولانا محمد حبيب الرحمن العثماني، وأخوه شارح مسلم مولانا شبير أحمد عثماني، ومولانا أصغر حسين، وأديب المدرسة وفقيهها مولانا إعزاز علي، ومولانا سراج أحمد ، وغيرهم ممن لم أعرف اسمه. ثم وزعت عليهم مؤلفات سيدنا الوالد، كالأحاديث المتواترة، والرسالة المستطرفة. والدعامة، ونحو ذلك من مطبوعاتنا. ففرحوا بذلك غاية.

ثم إن حضرة المدير استدعانا للغداء عنده بمنزله الخاص، قائلا لنا: " أنتم في ضيافتي الخاصة بي في بيتي مادمتم هنا!". فشكرناه، ودعونا له. فلما ذهبنا أحضر لنا مائدة حافلة بأنواع الأطعمة فأكلنا وشربنا. ومازلنا نذهب إليه في الغداة والعشي مدة إقامتنا. نذهب إليه بعدما يأتي في طلبنا نائبه الشيخ حبيب الرحمن، ماعدا الصباح. فكانت مائدته توضع في غرفة الإدارة.

ومن الغد استدعانا بعد الغداء لتناول الشاي عنده بمنزله الخاص العلامة الكبير مولانا محمد أنور شاه، وأهدانا نسخة من تعليقه المسمى بـ" **العرف الشذي على جامع الترمذي**" وشيئا من مؤلفاته الأخرى تضم شروح وحواشي على أبي داوود والترمذي وغيره، وقرأ علينا شيئا من شعره في قصة المعراج. وهو رجل مربوع حسن الصورة، ذو لحية كبيرة غلب بياضها على السواد، يلبس قميصا أبيض وعمامة، ذكي جدا، متبحّر في العلوم العقلية والنقلية، متواضع، متقشف يجلس حيث انتهى به المجلس، ميّالٌ للسنة، يحب العلم وأهله. ومن مذاكرات الشيخ محمد أنور المذكور، ما نقله لنا عن الشيخ محمد قاسم النانوتوي،منشئ دار العلوم الديوبندية في تعريف ماهية"الزمان"، وقد سئل عنه، قال: " هو حركة الإرادة الأزلية من الأزل إلى الأبد!".

قال مولانا أنور شاه مرة لرفيقنا الحاج أحمد: " نحن لا مال لنا نقوم به لخدمة هؤلاء السادات فكن أنت نائبا في خدمتهم والبرور بهم عنا وعن أهالي هندستان جميعا!". فأجابه بقوله:" أنا عاجز عن ذلك، ولكن والدهما المعدود من أولياء الله هو الذي يقوم بذلك عن الكل!". فاستحسن الشيخ المذكور منه هذا الجواب، وأثنى عليه به. وجرى

مرة ذكر النجديين الوهابية بمحضره، فقال:" أنا لا علم عندي بحقيقة هؤلاء الجماعة، ولكن أدركت فحول مشايخي وهم لا يستحسنون طريقة الوهابية!". وذكر عنده مرة ابن تيمية، فقال:" هو آية من آيات الله في الحفظ والحديث، ولكن إذا ظهر له شيء لا يلتفت لغيره!". أو كلاما هذا معناه. ويظهر من كلامه أنه يطالع" **الفتوحات المكية**" ويعتقد مؤلّفَها الشيخ الأكبر، وأنه من أهل السنّة والجماعة. أقول: وهذا خلاف ما يعتقده أهل بومبي في علماء ديوبند من أنهم كلهم وهابيون ومخالفون للسنّة والجماعة، وينسبون لهم اعتقادات ومصائب، وهذه إجازته لنا:

" بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى. وبعد فإني أجزت مولاي السيد الهمام الشيخ محمد الزمزمي أدام الله تعالى ظله، بالحديث المسلسل بالأولية، وبجميع ما أجازني به مشائخي من الكتب الستة وغيرها، عن شيخي مولانا محمود الحسن الديوبندي، عن شيخه القدوة الزاهد الشاه عبد الغني المجددي الدهلوي ثم المهاجر المدني، بالإسناد المثبت في " اليانع الجني". والله أسأل أن يرزقه العلم والحكمة، آمين. الأحقر محمد أنور شاه، عفى الله عنه، مدرس دار العلوم الديوبندية، ٣٠ شعبان سنة ١٣٤٣هـ".

ثم انصرفنا من عند الشيخ المذكور لمحلنا. فزارنا به جميع مدرّسي المدرسة المذكورة ونحوهم، وعرضوا علينا بعضا من مؤلفاتهم وأشعارهم، كالشيخ حبيب الرحمن نائب المدير، وأخيه شارح مسلم، قرأ علينا شيئا مما كتبه على مسلم، وهو نحو ربعه إذ ذاك، ويريد أن

يقوي الهمة في الكتابة ليتممه، وفقه الله وسدده. وقد أجازنا خليفة المدير العلامة مولانا حبيب الرحمن كذلك.

وممن وفد علينا ونحن بهذه المدرسة الفاضل الشيخ عبد الحق الهندي الذي اجتمعنا به بمدينة كراتشي قبل وصولنا لبومبي. وهو الذي عرفنا بهذه المدرسة وبمشايخها وعلمائها. وكان كثير التردد علينا والذهاب والمجيء معنا.

ثم وفد على المدرسة أيضا زائرا لنا بها العلامه أحد مدرّسي الحرم النبوي، الحسن الخلق والخلق الشيخ حسين أحمد، المقيم الآن بمدينة" سيلهت". وقد أخبرنا بالمحنة التي جرت عليه بالحجاز، وعلى شيخه الملقب بشيخ الهند العلامة مولانا محمود الحسن على يد أمير مكة الشريف حسين بن علي كما أخبرنا بنشاط الجماعات الداعية إلى النصرانية بالهند.

وممن زارنا بمنزلنا الخاص بهذه المدرسة مولانا أصغر حسين، فأهدى لنا نبقا من هذه البلدة، فإذا هو كالجوز كبرا، حلو الطعم.

وممن زارنا بهذه المدرسة، وافدا من الخارج ، الشيخ محمد عزيز، الأفغاني الأصل، المقيم بمدرسة ديوبند. أخبرني أنه رأى سيدنا الوالد بالمدينة المنورة، ودخل بيتنا في إحدى حفلاتنا للمولد النبوي بمعية العلامة المسن الشيخ أحمد خليل السهرنبوري، الموجود بها الآن.

وممن زارنا أيضاً من أهل البلد السيّد نذير حسين بن نور حسين الديوبندي، أحد أعيان ديوبند وحكامها، وظيفته بالحكومة "تحصيل دار". فحضر الطعام صباحا، فامتنع من تناوله احتجاجا عليهم كيف لم يخبروه بمجيء أمثال هؤلاء السادات، لكي يزورهم ويتبرك بهم بمشاهدتهم. ثم استدعانا للعشاء عنده بمنزله بعد المغرب، واستدعى معنا

كثيرا من مدرسي المدرسة. فكان ممن حضر نائب المدير الشيخ حبيب الرحمن، ومولانا أنور شاه. فأدب مأدبة فاخرة جزاه الله خيرا.

وفي ليلة يوم الخميس راقبنا الهلال في ديوبند، مع بعض الطلبة، وذلك قبل المغرب. لكن كانت في السماء علة منعتنا من النظر، فلم نر شيئا. فأصبحنا يوم الخميس مفطرين، إتماما لشعبان ثلاثين.

وفي صبيحة سفرنا يوم الخميس ٣٠ شعبان، كتبت لنا الإجازات الموعود بها، والتي سطرناها آنفا ، ثم إن رفيقنا الشيخ الحاج أحمد أعطانا خمسين روبية لندفعها للمدرسة، على سبيل الإعانة باسمنا. فدفعتها لنائب المدير، فامتنع أولا من أخذها، وبعد إلحاح أخذها قائلا: " أنتم أبناء سبيل!" ثم سجلها في دفتر المدرسة، وأعطانا بها سندا. ولما أردنا وداعهم، نزل معنا من حضر من المدرسين والطلبة، وفي مقدمة الكل المدير،مع كبر سنه وضعفه ومرضه،جزاه الله خيرا.وقد منعناه،فلم يساعد،فودعناه بباب المدرسة.وأرسل معنا للمحطة،نيابة عنه،ولديه الفاضل الذكي العالم المتدين الشيخ محمد طاهر وأخاه الأكبر الشيخ محمد الطيب نشأ كل منهما في الصيانة والديانة والعفاف والفضل،ذكرهما الله بجميل ذكره.وكذا خرج بمعيتهما الشيخ عبد الحق الهندي المدني، السابق الذكر. وعند حضور القطار ودعناهم وانصرفوا، جزاهم الله خيرا.

١١- إلى كلير ثم الرجوع إلى بومبي فدمشق:

وكانت حركتنا في القطار من ديوبند يوم الخميس قبل الظهر بساعتين. قاصدين مدينة سهرنبور. فوصلناها بعد نحو الساعة من سفرنا. فقصدنا فيها زيارة العلامة المسن البركة الشيخ خليل أحمد، لكن بعد وصولنا للمحطة الكبيرة المتشعبة بلغنا سفره. فلم ندخلها،

بل قصدنا منها زيارة القطب الكبير العارف الشهير مولانا مخدوم على أحمد علاء الدين صابر، الذي تنتسب إليه الطريقة الصابرية.

فنزلنا بالاستاسيون المسمى "روركي" ومنه ركبنا العربات إلى أن وصلنا إلى بلدة كلير شريف بينهما نحو الساعة وربع. وهي بلدة طيبة، لا بأس بها ومنها توجهنا في طريق منتزه، كان نهر الهند الكبير المسمى " كنكا" عن يميننا، والبساتين والأشجار عن يسارنا، إلى أن وصلنا ضريح مولانا مخدوم علي الذي يبعد عن البلد بنحو الست كيلومترات. فإذا هو في انتظارنا هناك منذ يومين أحد زعماء الهند سابقا، وهو المسمى " ميان محمد شطاري"، فبمجرد ما سمع بوصولنا هيأ لنا هناك محلا لنزولنا، ثم أخذنا لمنزله الخاص، وأحضر لنا سفرة من الطعام أكلنا منها، وكنا في حاجة، ونيته البقاء في رفقتنا إلى بومبي.

وهذا الضريح عبارة عن حرم كبير، به محلات كثيرة معدة لنزول الزوار الوافدين وقت الموسم الذي يكون يوم المولد النبوي، ويحضره من الخلائق ما لا يعد كثرة وعددا. ولذلك بنى بعض المحبّين منزلا سماه " مسافرخانه" ومسجدا عند المحطة التي ينزل إليه منها، وعبدوا الطريق الموصلة إليه، وصرفوا في ذلك مبالغ طائلة. وهذا الضريح وتوابعه جاء وسط بستان كبير، في غاية النباهة والسعة، به كل الأشجار والزهور والرياحين والطيور.

وقد أتممنا يومنا الخميس به، وفي المغرب رأينا هلال رمضان بصحته. ثم قدمونا فصلّينا بهم المغرب، ثم ذكرنا وردنا هناك. وبعد صلاة العشاء، صلينا التراويح كعادتنا مع سيدنا الوالد في ليالي رمضان. ثم نمنا، وقمنا وقت السحور، فتسحرنا وأصبحنا صائمين، ونيتنا صيام الشهر كله، إن شاء الله، ما وجدنا لذلك سبيلا، مرتكبين في

ذلك العزيمة. ﴿وَأَنْ تَصُوْمُوْا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُوْنَ﴾ دون رخصة السفر. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

ومن الغد الذي هو يوم الجمعة. استعملنا لطيف ابن حجر ٤٤٤٤ لنا وللحاج أحمد وأخيه وجماعة من رفقائه. ثم صلينا الجمعة. فأعدناها ظهرا كالماضية. لأن إمامنا، وإن أحسن القراءة والإمامة، ولكن الحاضرين بها كلهم مسافرون، وإنما حضروا للزيارة فقط ثم السفر، على أن الخطيب لما جاء للخطبة، وجد بمكانها كتابا مطروحا، فأخذه وقرأ منه الخطبة الثانية أولى، والأولى ثانية، ولم يأت في واحدة منهما بآية ولا حديث أصلا، ثم نزل وصلى. ولما أردنا السفر والخروج أتانا قيّم الحرم. وهو عبدالرحيم شاه، وقبل يدينا وودعنا.

ثم سافرنا من حيث أتينا ، فمررنا على نهر الهند السابق، فإذا هو محمول على قنطرة كبيرة هائلة، وتحته واد آخر أعد للسيول إذا هي أتت، فأعجب لنهر كبير محمول على نهر صغير. ورأينا بهذا النهر سنابك وفلائك وقناطر عرضا على الجهة الأخرى، ورأيت بهذا البلد -كلير شريف- عساكر ومدافع وسيارات مصفحة للإنجليز، خذلهم الله وأذلهم.

ثم وصلنا لمحطة سهرنبور، فدخلناها قاصدين مدرسة العلامة الشيخ خليل أحمد المسماة بـ " مظاهر العلوم". فدخلنا المدرسة، واجتمعنا بها ببعض الطلبة والمدرّسين، دون أن نجد رئيسها أستاذها الأكبر، بل وجدناه خارج البلد للتفسح والنزهة، لأن الوقت كان وقت تعطيل للقراءة. وهي مدرسة واسعة لطيفة كاملة مستكملة، بها من الطلبة نحو الثلاثمائة، كلهم يقرأون العلوم الدينية خاصة.

ومن هناك أخذونا إلى مدرسة أخرى أكبر منها، أنشئت منذ خمس عشرة سنة. فاجتمعنا فيها ببعض المدرسين: منهم حضرة

مولوي عبد الرحمن بن أحمد ، مدرس الحديث والتفسير والفقه والفلسفة وغير ذلك، ومنهم مولانا أسد الله بن رشيد الله، مدرس في فنون مختلفة وبالأخص الأدب والمنطق، ومنهم مولانا أخلاق أحمد، مدرس أيضا في فنون مختلفة. وأخبرونا أن عدد مدرسيها يبلغ نحو العشرين. ومن المدرسين أيضا الحافظ مولانا محمد زكريا بن مولانا محمد يحيى، مدرس الحديث، وأعان الشيخ على شرح أبي داوود. ثم صلينا المغرب بعد أن تناولنا شيئا من الفطور مع من هناك من أهل العلم بالمدرسة. وبعده أردنا الخروج فمنعونا إلا بعد العشاء. فاعتذرنا لهم وذهبنا راجعين للمحطة فتعشينا بها هناك في بيت قد طبخ لنا فيه طعام خاص.

ثم سافرنا قاصدين دهلي،فدخلناها في منتصف الليل.فجلسنا باخطة إلى أن وصل الصباح عند الشمس.هناك جاء بابور (قطار) بومبي، فركبناه من غير أن ندخل البلد. فدام بنا السير ليلا نهارا إلى أن وصلنا بومبي عند ظهر يوم الأحد رابع رمضان بعد ثمانية وعشرين ساعة من خروجنا من دهلي. فوجدناهم قد صاموا رمضان بالرؤية يوم الخميس.

وفي يوم الثلاثاء، سادس رمضان، استدعانا ببومبي أحد أصدقاء الحاج أحمد وهو فاتح محمد. فلما كان وقت العصر حضرت لمنزلنا"محبوب منزل" سيارةٌ ركبنا فيها، وبمعيتنا كل من الحاج أحمد وإسماعيل الصباغ وجاجا إبراهيم، فذهبنا أولا لزيارة معمل صباغة حاجي إسماعيل الصباغ. رأيناه وتجولنا بنواحيه، فإذا هو مصبغة واسعة كبيرة، تشقها السكة الحديدية في النصف، وبها بيوت ودور وغير ذلك. والصباغة بها على الشكل القديم المعروف. فدعونا الله بالبركة والتيسير والسعادة والمعونة والستر له وللحاضرين.

ثم انصرفنا قاصدين مصبغة جاجا إبراهيم، فوصلنا بعد مسافة بعيدة. فإذا هي وسط بستان كبير، وبداخله دار جميلة لصاحب المصبغة. وبها رياث وأثاث وبير سواني تجره البقر، وبداخله ماكينة كهربائية، وبها تصبغ الثياب، فرأيناها تأخذ الثياب البيض فتغمسها في الأصبغة المتلونة، ثم تنشفها في قوالب أخرى، ثم تطويها في دواليب طيا محكما، ثم تفرزها وتطبعها وترقمها، ثم تلفها في أوراق مخصوصة على هيأة ما يأتينا من بلاد أوربة، ثم تلف بالخيش والسينكو في ماكينة أخرى، وهكذا. ثم إننا صلينا العصر بدار المكينة، واسترحنا بها قليلا، وأخذنا لهم الفاتحة، ودعونا الله لهم بالبركة في ذلك المنزل وأصحابه.

ثم انصرفنا لمحل الدعوة الذي خرجنا بقصده. فتناولنا به الفطور في حفل عظيم. ثم صلينا المغرب، وذهبنا لزيارة المفسر المهايمي بقرية "مهايم" لأن هذا المحل قريب منها. فزرنا وودعنا وانصرفنا. ثم ذهبنا لزيارة حفيد وابن ابنة نقيب بغداد السيد إبراهيم القادري، الشهير الذكر ببومبي. فوصلنا إليه في جمع سيارات. فدخلنا عليه، فقابلنا أولا ابنه الشاب النجيب السيد نجم الدين أفندي. وبعد أن لاطفنا وسقانا القهوة، أتانا أبوه السيد إبراهيم، فرحب وهش وبش. فدار بيننا الحديث حتى جاء مبحث الدخان لأنه صار يشربه بحضرتنا. فعارضه في ذلك الأخ مولاي المكي وأنكر عليه شربه. ثم جاء ذكر علماء ديوبند، فلمزهم السيد المذكور، ونسبهم لمذهب الوهابية، فبرأناهم مما نسب إليهم، وذكرنا له ما رأيناه من فضلهم وعلمهم وحسن ديانتهم وجميل سيرتهم. ثم بعد ذلك استأذناه في الخروج، وودعناه وانصرفنا. فركبنا سياراتنا قاصدين بيتنا ومحل نزولنا. ولما وصلناه جاء لزيارتنا به نقيب أشراف المدينة المنورة وابن نقيبها السيد

أبو بكر بافقيه المدني. فسهرنا معه، وحدثنا ببعض ما له من المرائي ، ثم انصرف.

ومن الغد أتي لنا بسيارة، فذهبنا لزيارة صباغة المحب الفاضل البركة إسماعيل مولوي ، وذلك بطلب حثيث منه كالذي قبله. يقصدون بذلك حلول البركة بمحلهم ومحل تجارتهم بحلول الأشراف وأهل الفضل، وزيادة الرزق والخير بها. بلغهم الله مقاصدهم بمنه، وعاملنا الله وإياهم بلطفه ومزيد عطفه. فذهبنا إليها، فإذا هي فابريقة (أي محل صناعة)ضخمة كبيرة، تصنع أنواع الحرائر التي ترد إلينا من أوربة، من جميع الألوان، وهي هائلة معتبرة، تدر على المشتغل بها مالا وغنى، لولا كساد الأسواق الآن. وانحطاط حال الناس بالهند كغيره من أغلب البلاد. وقد دعونا الله له بالبركة والفضل وأداء ما عليه من الديون وصلاح الأحوال، وخرجنا.

ثم ذهبنا لزعيم الخلافة سابقا. المسلم الغيور الذي خانه الزمان وأهله الآن، حتى أصبح في حالة يرثى لها،" ميان محمد شطاني"، جبر الله كسره، وعاملنا وإياه بلطفه وإحسانه. فأتيناه في بيته الكبير الواسع. فقابلنا ورحب بنا، ثم طلب منا بعض الأذكار ليستعين بها على دفع نوائب الدهر وأهله. فلقناه شيئا من ذلك حسبما وعدناه به قبل. ثم استأذناه في الخروج، فودعناه ودعونا له بصلاح الأحوال والخلاص من الأوحال، وانصرفنا. وهذا الرجل كان بالهند كزغلول باشا بمصر، عظيم الثروة، عظيم الغنى، أنفق أمواله كلها في سبيل الخلافة الإسلامية. وكان رئيس حزب يدعو إلى إعادة الخلافة الإسلامية بعد رفض الأتراك لها. وكان محبوبا عند عامة أهل الهند، مسموع الكلمة منهم، إذا رحل إلى بلد استقبله جميع أهلها بالتهليل والتكبير، وتزاحموا عليه فإذا صحت لشخص رؤيته عد نفسه سعيدا

محظوظا. وكان كريم النفس ديِّنا إسلاميا صرفا، استدعاه ملك الإنجليز للضيافة عنده خاصة بلندن والمباحثة معه، على أن يكون مصروف الذهاب والإياب كله على الملك، فامتنع ولم يذهب أنفة وتكبرا عليه لكن لسوء حظ المسلمين وأفول شمسهم، لم يفلح في مشروعه بعد أن صرف في سبيله جميع ما يملك وسقط. فعند ذلك تغير عليه، والعياذ بالله، الزمان وأهله، وصار فقيرا بعد ما كان غنيا وذليلا بعد أن كان عزيزا، فسبحان من يحول ولا يتحول يؤتي الملك من يشاء وينزعه عمن يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

ولما كان المغرب، ذهبنا للفطور إجابة لدعوة أحد أصدقائنا الثلاثة، وهو إسماعيل الصباغ ففطرنا عنده ورجعنا، وهنا وصلنا مكتوب من سيدنا الوالد بالشام، هذا نصه بعض الطالعة، قال:

" وأوصيكم بالائتلاف وأن تكونوا كرجل واحد على قلب واحد. وإياكم والتخالف فإنه من الشيطان واحرصوا على ملاقاة الصالحين والعلماء، وأهل الخير، فإن ذلك الغرض الأكبر من سفركم وعلى شراء الكتب الحديثية والتاريخية التي تعلمون أنها ليست عندنا مما يطبع هناك، وخصوصا كتب الرجال والروايات، والله تعالى يكون لكم عونا ومعينا ويسير أموركم ويتقبل أعمالكم ويخلص نيتكم بمنّه. ولا تقطعوا عنا أخباركم بكل ما يتجدد عليكم واكتموا أسراركم ما أمكنكم، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه. ومما أؤكد به عليكم أن تقرأوا هذه السور الخمس صباحا ومساء بالبسلمة في أول كل سورة منها وفي آخرها أي آخر كل واحدة منها: وهي الكافرون، والنصر، والإخلاص، والمعوذتان. وهي بالهيبة والقبول والتيسير، وسور أخرى أربع، وهي اقرأ، وإنا أنزلناه، وإذا زلزلت ولايلاف قريش بالبسملة في كل صباح

ومساء، للحفظ من تصرف أحد فيكم في الظاهر أو الباطن، والله يتولى أموركم ولا يكلكم إلى أنفسكم، والسلام. يوم الأربعاء ١٦ سادس عشر شعبان عام ١٣٤٣هـ ، عبد ربه تعالى محمد بن جعفر كان الله له آمين".

ولما كانت ليلة سفرنا، اجتمع عندنا للوداع بمحل نزولنا كثير من الزعماء والوجهاء وذلك كالزعيم السابق الذكر محمد شطاني وأحمد صديق الصباغ، وأخيه؛ ورفقاؤنا الثلاثة، وغيرهم من أهل البلد، ممن نعرف وممن لا نعرف ثم إن الحاج أحمد أتانا بكسائه الكشميري الأخضر أحد الوجهين،والأصفر الوجه الآخر، العلي القيمة، فأعطانا إياه أمانة لسيدنا الوالد، وبأكسية أخرى متوسطة لنا نحن الثلاثة. فانتبه لذلك محمد شطاني، فأرسل جبة كشميرية موشاة، فناولنا إياها أيضا أمانة للوالد، ثم اقتدى بهم بعض الحاضرين، فأهدى كلٌ ما سمحت به نفسه كما قدموا لنا قبل ذلك كثيرا من سلل الفواكه المتنوعة، وعند الخروج أتانا بعضهم بمشاميم وقلائد من الزهور فجعلوا ذلك علينا شأنهم عند وداع عزيز وانصرفوا.

وفي الصباح الذي هو يوم الجمعة تاسع رمضان، حضرت سيارة، فحملتنا وعفشنا إلى البابور البحري، يرافقنا الحاج أحمد، الذي بقي معنا إلى أن أجلسنا بمقرنا بالبابور والذى تكفل بأداء ثمن أوراق ركوبنا نحن الثلاثة به في درجة عالية منه. ثم ودعنا ودموع العيون تنهمر وحسرات الفراق تتأجج من الجهتين. ثم أوصانا بالمحافظة على ما معنا من المال الذهبي الجنيه الذي جعلناه مخيطا خلال ألبستنا الداخلية محافظة عليه، وبمخابرته والكتابة له عند الوصول، ويطلب الدعاء له من سيدنا الوالد، ثم انصرف جمعنا الله به وبأمثاله بمعية سيدنا الوالد، تحت لواء سيد المرسلين. فحياه الله من محب عظيم

ورجل جليل فخيم، قلّ أن يأتي بمثله دهرنا الخؤون. عامله الله بلطفه ورضاه وتوفيقه. وقد حمّلنا عددا من سلسل الفواكه والأطعمة والمآكل، حتى أنه حمّلنا عددا من الدجاج الحي لنذبحه بالبابور (الباخرة) وفي جملتها ثلاث طاوسات وصلت معنا للشام وبقيت عندنا مدة إلى أن أهديناها لبعض الأحباب.

وقبيل ظهر يوم الجمعة تاسع رمضان تحرك بنا البابور الإنجليزي المسمى " واصند" ومن غريب الصدف أن هذا البابور هو الذي حملنا من البصرة لبومبي عند الطلوع لها، وثمن الركوب ١٦٥ روبية لكل راكب قاصدا البصرة في الدرجة الثانية بدون أكل. بل أتى لنا الحاج أحمد وغيره من الأحباب بكل ما يلزم من خبز ودجاج وسمن وبيض وفواكه متنوعة وغير ذلك.

وقد ظل البابور سائرا إلى أن كان بعد عشاء يوم السبت ثاني يوم من سفرنا، حل بنا بمدينة كراتشي، فبقي ليلة. وبعد طلوع شمس الصباح بنحو ساعة، سافر بعد ما طلع من البلد حكيم عاين جميع المسافرين وانصرف.

ووصلنا البصرة بالعراق يوم الجمعة ١٥ رمضان، وبقينا بالعراق عشرة أيام. ووصلنا دمشق قادمين من بغداد عصر يوم الإثنين ٢٥ رمضان سنة ١٣٤٣هـ .

١٢- نبذة عن الهند وأهلها:

ثم لا بد من الإشارة إلى نبذة عن الهند وتاريخه فنقول : بلاد الهند فتحها المسلمون في خلافة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هجرية. ثم تداولتها أيدي المتغلبين من أهل الإسلام وغيرهم إلى أن دخلها الإنجليز عام ١١٥٩هجرية بصورة تجارية. ولم يزل يستدرج في التداخل بأنواع الدسائس وأفانين الحيل والختل والمكر إلى أن استولى

عليها في حروب هائلة ومصاريف طائلة. وقد أهاج الهنود نيران العصيان للتخلص من ربقتهم مرارا، فلم يفلحوا في ذلك. وسببه كثرة تنوع أهاليها واختلاف مللهم ونحلهم، والله بعلم المستقبل خبير.

وقد بحثت أيام وجودي بالهند على تاريخ للهند باللغة العربية فلم أعثر عليه. وإنما هناك تواريخ له بالعجمية، الفارسية والأردية، وغيرهما من اللغات غير المفهومة لنا، والله أعلم. وتنقسم الممالك الهندية إلى قسمين: الهند الإنجليزية البحتة، وهي التي تحت نفوذ الإنجليز مباشرة، والهند المستقلة الداخلية تحت الحماية. فالأولى تحتوي على عدة ولايات، وهي بومبي ومدراس والولايات الشمالية الشرقية، وكثير غيرها. والقسم الثاني، وهو الداخل في الحماية ، يحتوي على نحو ٢٥ مملكة، منها مملكة نظام حيدرآباد، وبهوبال، وكشمير ، وميسور، وغيرها.

وبالجملة، " فالهند"، كما ذكرته السعادة في عددها ٥٦٠٥ وتاريخ ٢٣ رجب عام ١٣٦١هـ، " هي عالم متسع الأطراف شاسع، يسميه الأهالي" سودازانا" أو " البلاد العجيبة"، وقد اتخذ ملك الإنجليز منذ سنة ١٨٧٦ ميلادية لقب إمبراطور لتلك البلاد. وهي تشغل من مساحة الإمبراطورية البريطانية التي تقدر تقريبا بـ ٢ر٨ مليونا من الكيلومترات. وتستخرج إنجلترا من الهند، التي يبلغ طول سواحلها من إحدى الجهات ثلاثة آلاف ومائتين كيلو متر، كميات هائلة من المواد الأولية كما أن تنوع بقاعها واختلاف الأقاليم فيها يساعد على نمو كميات عظيمة من المنتجات الزراعية المختلفة. فمقاطعة " دكان" مثلا تنتج القطن الذي يصدر إلى الخارج عن طريق بومبي، والسهول الواقعة بقرب نهر " الكنج" تنتج القمح والأرز اللذين يصدران من مدينة كلكتا. أما برمانيا فتنتج وحدها أكثر من مليون طن في السنة من النفط والقمح. وتدل الإحصاءات أن الهند

تحتل المرتبة الثالثة في العالم بين البلاد التي تنتج الأرز، والدرجة الرابعة في إنتاج القمح، والأولى في قصب السكر، والثانية في القطن الذي يصدر إلى الخارج، وتحتكر الهند بصفة عظيمة إنتاج نبات الجوت الذي تصنع منه الأكياس، وهي ترسل إلى الأسواق العالمية ثلثي مقادير الشاي المستهلك في العالم. والهند تعد أيضا في طليعة البلاد التي تنتج التبغ والنباتات الزيتية".

ولسائل أن يقول بعد هذا كله: " ما هي الهند؟ أهي دولة كسائر الدول؟" إن الهند أكثر من ذلك. فهي عالم متسع الأرجاء وقطر عظيم تتضارب فيه المسائل الاجتماعية والاقتصادية وتتباين. وهو يشمل على خليط من الأجناس والديانات والطبقات. وفيه العناصر المختلفة من الجنس الأبيض والأسود والأصفر . وترى فيه الذين يدينون بالبوذية أو المسيحية، على أن الديانتين المنتشرتين بصفة خاصة بين الهنود ، هما البرهمانية والإسلام. ويتكلم السكان في تلك البلاد أربعين لغة ومائتين لهجة. والهند من الناحية السياسية تنقسم إلى ١٥ مقاطعة ، كما يقدر عدد الدول والدويلات الأهلية فيها بمائة وتسع وستين دولة فتأمل.

أما الدين فأهل الهند ينتمون إلى فرق متعددة، فمنهم من يعبد الحجارة،ومنهم من يعبد إناث البقر،ومنهم من يعبد البقر، ومنهم من يعبد الشمس، وبالجملة فالهند عش الأديان، ومنبع الأهواء، واختلاف الأزياء. ومع ذلك ففيه الأولياء والعلماء والأتقياء والفقهاء والمحدّثون، والأقطاب الواصلون، والمسلمون المستمسكون، وغيرهم.

والموتى من المجوس يحرقونهم بالنار إلى أن تكتشط لحومهم ، وتنقبض أعضاؤهم وتسود عظامهم، فعند ذلك يدفنونهم على هيأة شنيعة. ومنهم من يحنطون موتاهم بلبن وزعفران وعقاقر تحبها

الطيور، ثم يجعلونهم بمحل مرتفع، كجبل مخصوص إلى جهة البحر معدود لذلك، فيتركونهم كذلك عراة، فتأتيهم الطيور والغربان، وما أكثرها بهذه البلاد، فتأكل لحومهم كلها إلى أن لا يبقى سوى العظم، فحينئذ يأخذونهم ويدفنونهم.

ومن شعائر دينهم أن يجعلوا بين عينيهم، بالصباغ الأحمر، علامة وشامة تختلف شكلا ولونا وكبرا وصغرا. فمنهم من يقتصر على هيأة الخال، ومنهم كالدرهم وأكبر وأصغر، ومنهم من يجعلها على الشكل لا، ومنهم من يلطخ وجهه كله وثيابه كلها إلى غير ذلك.

وللناس في هذه البلاد مع الإنجليز المالك الحاكم تمام الحرية في إظهار شعائر أديانهم على اختلافها، وعوائدهم على تفننها وتشيعها، وإن كان في ذلك ما يخالف العقل أو الآداب العمومية، والنظامات الناموسية، ما دامت أقدامهم في البلاد ثابتة، وسياستهم في الناس راسخة، وغير متزحزحة.

أما أزياء أهل الهند فمختلفة. منهم من يلبس في رأسه العمامة الملونة ويرتدي "يصاكو" ويأتزر بمئزر يبقى معه مكشوف العورة، لأنهم لا يتسرولون، لا نساء ولا رجالا، ولا يسترون من العورة سوى السوأتين بخيط كالإصبعين يجعلونه بين الإليتين، ويشدُّونه شداً محكما بالوسط، النساء والرجال، ولا يبالون بكشف الأفخاذ وغيرها، وكثيراً ما ترى النساء والرجال على هذه الهيأة الشنيعة، فتقشعر جلودنا من ذلك، أما المسلمون منهم ، فلاعتيادهم بتلك المناظر منذ الصغر، لم يبق عندهم في ذلك كبير غرابة. هذه حالة عامة الهنود المجوس، وقد يوجد فيهم من يرتدي ألبسة الفرنج نساء ورجالا، لكنهم قليلون.

وعامة نساء المجوس يشتغلن في المهن والأسواق، وفيهن كثر وجهد وصنعة، ولكنهن في شقاء وعذاب ومحنة ، يستعملن الخواتم في أصابع أرجلهن وفي أنوفهن وجميع آذانهن. ويجد فيهن الحفاة والعراة ولاسيما الأولاد والطبقة الفقيرة.

كما يوجد في الهنود الأغنياء الكبار أصحاب الملايين وأرباب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وأنواع الجواهر والعقار، وغير ذلك. ومع ذلك لا تجدهم ينعمون لا في مأكل ولا ملبس ولا مسكن. بل قد لا تميّز غنيهم من فقيرهم من كثرة التقتير.

وهم سمر للغاية، مع نحافة أجسامهم غالبا. ويقل فيهم الجمال والبياض والدم. وإذا وجد ذلك نادرا في واحد منهم، فربما فاق غيرهم في ذلك.

ومن عوائدهم التساهل في القيام للداخل، إلا إذا كان ذا علم وجاه كبير. ومن عوائدهم تقليد الزهور إكراما للمسافر العظيم القدر العزيز وجعل المشاميم منها في يده تحلية بذلك، أما عند استقباله من سفر قدم منه، أو وداعه لسفر يريده، وذلك من طرف أعزائه وأحبابه.

ومن عوائدهم اتخاذ الغنم بالأبواب والطرقات كأهل المدينة المنورة، فترى الغنم منتشرة في أبوابهم وطرقاتهم ليلا ونهارا بدون أن يتعرض لها متعرض.

وبلغني أن المجوس من الهنود يجعلون السوائب لبيوت أصنامهم ومحلات عباداتهم فيأتي أحدهم بالغنمة أو البقرة ويحبسها على بيت الصنم، فتبقى تأكل وتشرب وتتناسل مادامت حية. بدون أن يتعرض لها ولا لنسلها متعرض، وهذا ما عابه القرآن على الجاهلية بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيْرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ...﴾

وأما الزي الإسلامي هنا، فهو العمامة والصـــاكو والمـــئزر الساتر، ولا كمئزر المجوس. ويوجد من المسلمين من يلبس الطربـــوش الأحمر ويرتدي اللباس الأوروبي بقلة، والغالب في لباس الرجل النعـــل لغلبة الحر هنا، أو الكنطرة والسباط بدون جرابات.

وأما نساء الهنود المسلمات عموما، فهن أشد نساء المســـلمين تحجبا وسترا وبعدا عن التبرج في الأسواق والطرقـــات، هـــذا مـــن شاهدنا نحن ، فإنهن قليلات الخروج، وإذا خرجن فيلتحفن ملحفـــة بيضاء، أو غير ذلك على هيأة الكفن، لا تحديد فيها للخصر ولا لغيره من البدن ولا كمين لها، مع جعل شباك حريري محل للعينين للنظـــر، في غاية التستر. وما رأيت لنساء المسلمين كبير تجول بالطرقـــات ولا حتى في أماكن النزهة واللهو والتفسح، ولا تبرج ولا تبخـــتر كنســـاء العرب وبقية الأمم الإسلامية الأخرى، بل قلّ أن ترى منهن واحـــدة. وإذا ركبن العربات يجعلن عليها إزارا ساترا وحاجزا بينـــهن وبـــين الرجال. وهذا شيء ما رأينا من يصنعه اليوم ببلاد الإسلام إلا ما كان من سيدنا الوالد. قدس الله روحه.

وسوق العلوم الدينية الإسلامية بهذا البلد كاسد جدا، والجـهل ضارب خيامه على الجميع ، حتى في الأمور الضرورية. لكـــن مـــن لطف الله بهم أن ليس لهم رغبة حتى في مدارس الحكومة والإفرنج التي تغذي الأطفال الكفر، وتطعمهم السم في الدسم، حتى يخرجوا منـــها وهم أعداء الوطن والدين، ولا خير فيهم لا للبلاد ولا للعباد، كمـــا وقع بالدولة العثمانية، وندمت حين لا ينفع الندم، وأخيرا كانوا سبب خرابها، وخراب الإسلام والخلافة الإسلامية. ولا حول ولا قـــوة إلا بالله العلي العظيم. ولو كان في الهنود رغبـــة في المـــدارس الأجنبيـــة كالعرب مع هذا الجهل المطبق، لارتدوا،والعياذ بالله، عن آخرهـــم،لا سيما مع وجود ما لا يحصى ثرة وعددا من جيوش المضللين والمبشرين

بالتنصير والدعاة إليه.في بلاد الهند ما يزيد على المائة والثلاثين جمعيه صليبية،وكل واحدة منها تنفق في هذا السبيل الملايين من الجنيهات سنويا فتصرف على ذلك خزائن دول أوروبة ما يزيد على الخمسمائة والخمسين مليون من الروبيات سنويا. ومع ذلك لا تراهم يرجعون دائما إلا بالخيبة والخسران والندامة. ذلك لأن الله يريد أن يحفظ لهذه الأمة دينها،ولو إجماليا بينما يأتي الفرج الأمم الأتم القريب إن شاء الله ﴿ يُرِيْدُوْنَ اَنْ يُطْفِئُوْا نُوْرَ اللّٰهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّٰهُ إلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُوْنَ ﴾(سورة التوبة: الآية: ٣٢).

والهنود المسلمون للآن ما انفصلوا عن الخليفة عبد المجيد العثماني، ولا يعترفون بخلع الكماليين له، ويرون كغيرهم من كثير من فضلاء علماء الإسلام أن بيعته لم تزل باقية في الأعناق، وإن خلعه إنما هو تعنت على الإسلام، وعدم اكتراث بأوامره المطاعة.

ومن عادة المسلمين الهنود إذا أهدوا المعظم أو الشريف أن يجعلوا يدهم الدافعة تحت يد ذلك الآخذ الشريف أو المعظم، لتكون يده هي العليا، مبالغة في الأدب. فأعجب لهذا الخلق، فإنه أدب صوفي، ندب إليه أهل الله، ولاسيما مع آل البيت الكرام. ومن عادتهم أيضاً إذا أرادوا دخول ضريح أن يستعملوا آدابا منافية للشرع والدين الإسلامي. فمنهم من يدخل راكعا، ضامًّا كفّيه، رافعا لهما كهيئة عباد المجوس. ومنهم من يسجد، أو يقتصر على التقبيل فقط، أو هو وتمريغ الخدين، ومنهم غير ذلك. فيبكون ويتمرغون.

والهنود رأيتهم لا يكاد يوجد فيهم من يعرف العربية إلا نادرا من بعض أهل العلم، أو أفراد ممن سبق لهم أن جاوروا بالحرمين الشريفين، وما أقلهم بالنسبة للعموم. فترى القرآن يتلى والخطيب يخطب يوم الجمعة، ولا من يفهم من ذلك كلمة واحدة. وهذا خدش

في إسلاميتهم. ومعلوم أن لمساجد الهند طبقتين، عليا وهي لصلاة الجمعة، وبها يكون الخطيب ، وسفلى وهي للصلاوات الخمس.

وبالهند عدة أضرحة ومزارات لأفاضل من الأولياء لهم اعتناء بهم وبأضرحتهم، وفي الانهماك بتحليتها وزخرفتها وتنسيقها بأنواع الزينة والرفاهية ما ليس عند غيرهم من الأمم. والمسلمون الهنود بسطاء، سريعوا التأثر ممن يصدقونه ويعتقدون إخلاصه، وفيهم اعتقاد ومحبة، ومن أخلاقهم عموما كثرة الاعتقاد ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم،ومحبة آل بيته والمنتمين إليه،ومواسات جيرانه وأقربائه. غير أنهم في هذه السنين والأعوام مَلُّوا الحجازيين مَللاً عظيما،وكرهوهم بسبب كثرة ورودهم عليهم،وتهافتهم على أبوابهم بكثرة ولاسيما بعد أن حل الوهابي بالحجاز، وصار كأنه خال من الناس، مع ما هم عليه من عدم التعفف، وعدم التمسك بالدين والتحلي بأخلاق الصالحين. ومع ذلك تجدهم يساعدونهم، ويحرصون على خدمتهم ومواساتهم، رغما عما فيه الناس من الضّنا والضيق وضعف الحركة التجارية، بعد الحرب الماضية في أقطار الأرض كلها، مع الشحّ الذي جبلت عليه النفوس.

والهنود، في أكلهم، كالعرب الأول، يتناولون الأطعمة بأيديهم على سفرة مباشرة للأرض بدون سكين ولا ملعقة ولا شوكة ولا خوان ولا مائدة. وهم مغرمون في أطبقتهم ومآكلهم بالأبازر والبهارات الحارة، والإكثار من الزعفران، حتى تصير أطعمتهم مصبوغة بما ذكر، ولا يكاد يقدر على تجرعها غيرهم إلا بمعاناة. ولا يشربون إلا الشاي الأحمر الممزوج بالحليب، فكذا رأينا قراهم لضيوفهم في جميع الأوقات. فبلاد العرب قراهم القهوة وحدها، فإن بالغوا زادوا معها الشاي. والهنود دائما يعلكون التنبل.

وهذا التنبل قد قال فيه الشيخ داوود: " هو ورق من نبات يقطيني ينبسط على الأرض ورقه كورق الأترج سبط معرق، فيه زغب مّا، ورائحته قرنفلية، وفيه مرارة وقرافة، وأجوده الرقيق السبط، طيب الرائحة، الشديد إذا قطع، ويغشى بورق القرفة أو الساذج، والفرق إسكاره وتفريعه قيل وبورق يجلب من الصين ، قد ربى بماء البحر، والفرق قرافته، وهو حار من الثانية أو الأولى، يابس في أول الثالثة يقوم مقام الخمر في كل حالها من الأفعال النفسية والبدنية، والهند تعتاض به عنها. وهو يشد الحواس، ويقوي اللثة والمعدة والكبد ويفتت الحصا ويدر الفضلات ويفتح السدد، ويجوّد الحفظ والفهم، ويذهب السيلان ولحم الشبعة، ويشد الأسنان جدا إذا طيل مضغه، والناس يستعملونه بالجرّجير والفوفل إلى سبع ورقات كل مرة معها ربع درهم من كل من الأبازير المذكورة، وقد يربى فيعظم نفعه جداً، ويزيد في العقل، وينشط ويذهب الكسل. والإكثار منه يثقل الرأس، ويصدع، ويصلحه السكنجبين، وشربته إلى مثقال. وبدله في المنافع البدنية القرنفل والساذج والنفسية الخمر.

والثيران هي التي تجر الأثقال والأحجار والعربات الكبار دون الحمير والبغال، إذ للآن ما رأينا منها شيئا هنا. وثيران هذا البلد كبيرة وقوية وذات قرون كبار مخيفة، ويثقبون أنفها من الجهتين وقت الصغر، ثم يجعلون به حبلا يقودونها منه، فتنقاد بسهولة كالبهائم. والإناث توجد كذلك بقلة ، ولكنها للعبادة، لا للعادة، ويوجد أيضا هنا قليلا من الجاموس.

والفيلة يستعملونها لركوبهم ولجر الأثقال كذلك، وكنا نسمع في التواريخ وفي الأساطير الأولى أن الفيلة كثيرة ببلاد الهند يركبها

الملوك وغيرهم، وربما قاتلوا عليها، وقد أخبرنا الحاج أحمد أن الفيل عاقل لا يتعرض لأحد بسوء حتى أنه شاهد في بعض نواحي الهند في أحد معامل نشر الأخشاب أنها بعدما تنشر وتترك تحملها الفيلة بخراطيمها، فترصها بأماكن عالية رصا محكما.

والقرود بهذه الديار كالقطط والكلاب ألفت البيوت والمساكن والناس، فتدخل وتخرج وتترامى من فوق الأسطحة والمرتفعات وتأكل وتشرب وتختلس ما يمكنها اختلاسه واختطافه، من غير أن يكون لأحد عليها ملك ولا تصرّف ولا خشية من أحد، وهي من الكثرة والانتشار بمكانة.

وبلاد الهند هي بلاد المعادن والجواهر والكنوز والخيرات، وأنواع الطيب بكاملها، والفواكه التي لا توجد بغيرها على كثرتها وتعددها واختلاف أشكالها وأنواعها وأجناسها، كما أنها معروفة بكثرة الطيور على اختلافها،مع تباين أنواعها،من الطواويس إلى أنواع الباباغاء إلى الكنارات إلى أنواع اليمام والفواخيت. وكذلك يوجد بها أنواع الوحوش وكثرة الحيوانات واختلاف السباع والمفترسات وأشكال الطيور العجيبة التي لا نعرف لها اسما ولا رسما في غير الهند. فسبحان من خص كثيرا من مخلوقاته وعبيده وأراضيه بخصائص ومزايا، وفضّل بعضها على بعض. فسبحانه من حكيم حكم عدل. ومن رأى الهند وأراضيه الخصبة المنبتة، حتى جباله وأحجاره تجدها خضراء اللون، قد نبتت عليها الأشجار والحشائش، ليتعجب في هذا. وهذا هو السر في تكالب الإنجليز وتهافتهم على الهند، وبذل الجهود كلها في المحافظة عليه وعلى الطرق المنفذة إليه، بأيّ الوسائل كان ذلك والله بما يكون في المستقبل عليم.

الرحلة الثانية

سنة(١٣٥٣هـ -١٣٥٤هـ)

١- في بومبي مرة أخرى:

هذا، ولما كان صبيحة الخميس، عاشر يوم من ركوبنا، و١٢ من شهر شوال عام ١٣٥٣ هجرية، استقر البابور (الباخرة) بنا بميناء بومبي وساحلها. ثم بعد أن خف الزحام، دفعنا جوازات سفرنا للبوليس(الشرطة) الموفد لهذا الغرض من البلد ينظر جوازات المسافرين والمريدين الدخول للنظر الهندي، فمن كان جوازه مستوفيا للشروط المطلوبة مكن من الدخول، وإلا رد أو سيق إلى المحاكمة، ثم إنه صدق عليه بعد أن سأل عن عنواننا بالبلد، ومحل نزولنا بها، فكتبه ورد علينا الجوازات المذكورة، وأذن لنا بالدخول.

ثم إننا أخذنا قِطَعَنا وعفشنا، وحاولنا النزول، إذ أقبل من البلد مستقبلا لنا الأخ عبد المجيد اللحام الدمشقي، أحد أحبابنا التجار بالشام، والذين لهم بهذا البلد علائق تجارية أيضاً، فاستأنسنا بمقدمه، ورحب كل بالآخر. وكان قد كتب له من بور سعيد الأخ حامد طيرة، يكلفه باستقبالنا، جزاه الله خيرا. ولما كان لكل داخل دهشة، سيما على البلاد البعيدة الموحشة، والتي لا يعرف الإنسان لغة أهلها لذلك فرحنا بالمستقبل المذكور غاية، وزالت بسببه الوحشة.

ثم إننا وزعنا على من كان يتردد لخدمتنا من خدمة البابور حلوانا، مجاملة ومكافأة. ثم ولي السيد اللحام المذكور أمر الحمالة الذين ملأوا البابور، فكان يكلمهم بلغتهم الهندية التي تعلمها، حتى كأنه واحد منهم، فحملوا الحوائج المذكورة للكمرك والتفتيش. ففتحوا إحدى القطع ولما لم يجدوا بها شيئا، تركوا الباقي. غير أننا عند الخروج من الكمرك، رمق أحد جواسيسهم شكارة لي كانت

معلقة على الأخ سيدي المكي، فظنوا أن بها جواهر أو أشياء ثمينة، فتبعونا واختطفونا كما يخطف الصيد، وأدخلونا لغرفة خاصة. وأغلقوا دوننا الأبواب، وأخذوا الشكارة المذكورة، وجعلوا يفتشونها تفتيشا دقيقا، ولما لم يجدوا بها شيئا مما توهموه تركونا.

ولدى الخروج من الكمرك، وجدنا ببابه جماعة من العرب جاؤوا بمعية الأخ اللحام للسلام علينا واستقبالنا، فرحبوا وابتهلوا. ثم امتطينا بمعية الكل سيارة أعدت لنا، فذهبت بنا إلى حيث نزولنا عند اللحام المذكور،الذي وجدناه،رغم وحدته وانفراده،قد أعد محلا خاصا وفرشا لنزولنا.جزاه الله خيرا.وأسماء العرب الوافدين معه،وهم تجار اللؤلؤ والأقمشة والعطور والحبوب ونحو ذلك:أولهم الحاج عبد الله كاظم الأراني، عنوان محله(ميرزا علي استريت عمر كاري رقم ١٤)، وهذا الرجل من أهل الدين والخيرة والتقوى، وبمحله سكنى اللحام المذكور، والثاني الشيخ عبد القادر عثمان المكاوي(ستران بلدت دار حاجي محمد علي زينل، التاجر في اللؤلؤ والشهير الذكر) وغيرهما.

ولما كان اليوم الثاني من قدومنا، وهو يوم الجمعة، ذهبنا لصلاتها في سيارة لأحد جوامع البلد الكبرى، فصلينا في طبقة الجامع العليا، وسمعنا خطبة الخطيب. فكانت بالعربية الفصحى حض فيها القوم على الألفة والاتحاد والكون على بال من غوائل العدو القوي المالك(يعني الإنجليز). ولكن ليت شعري من يفهم، لأن القوم كلهم أعاجم، وإذا فهم، فمن يعمل:

لقد أسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادي

وبعد الفراغ من الصلاة رحلنا لمحلنا.

ومن الغد استدعانا أحد إخواننا وهو أبو بكر بن المرحوم حاجي أحمد حاجي سليمان، محبنا الشهير رحمه الله، فذهبنا لداره المشتراة من جديد. فشربنا بها الشاي ودعونا له بالتيسير والبركة، وكذلك لإخوته.

ثم خرجنا لعشاء أعد لنا على شرفنا بقرية" مهايم" البعيدة عن البلد بنحو النصف ساعة، لكن الآن قد اتصل بنيانها بالبلد. ولما وصلناها، زرنا بها ضريح المهايمي، صاحب التفسير المشهور المسمى"**تبصير الرحمن وتيسير المنان ببعض ما يشير إلى إعجاز القرآن**"، في مجلدين ضخمين، طبع بهوبال بالهند تصنيف الإمام الكامل، المحقق الثقة الهمام الفاضل، نادرة الزمان ونتيجة الأوان، مورد الإفادة ومصدر الإجابة، الشيخ العلامة علي المهايمي، قدس الله روحه ونور ضريحه ، بمسجده الخاص ومزاره الذي هو اليوم هناك كعبة للزائرين، نفعنا الله به. التفسير المذكور موجود ضمن خزائننا. وصادف أن ذلك اليوم يوم موسم يجعل سنويا لهذا الرجل الجليل. والقرية كلها لابسة لحلل الزينة والبهرجة، والأعلام الخفاقة، والازدحام بالزوار والواردين في غاية ونهاية، قد بسطت بها موائد الخير والسرور، وعم أهلها الفضل والحبور، وبعد الزيارة صلينا المغرب بجامع الشيخ المهايمي المذكور. وخرجنا لمحل الدعوة، فتناولنا العشاء في جمع من الأفاضل، ثم ذكرنا الله وصلينا على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وعند الخروج أتى لزيارتنا أحد أحبائنا السابقين ورفقاء حاجي أحمد حاجي سليمان الشهير رحمه الله، وهو حاجي إسماعيل حاجي أرت المسنّ الذي مات رفيقاه وبقي هو بارك رحمه الله به. ثم أخذنا لداره،فاجتمعنا فيها بأخيه وأولاده وأولاد المرحوم جاجا(لفظة

جاجا بلغة الهنود معناها عمي) إبراهيم وغيرهم. وبعد شراب الشاي رجعنا في السيارة لمحلنا.

وقد زارنا من أهالي مدينة " بومبي" جماعة من العلماء والفضلاء والتجار والكبراء. كما أنه ورد بها جمع لا يحصى يطلبون الطريق القادري. فكنا نسألهم عن الصلاة، فنجد الكثير منهم لا يصلي أو يتهاون بها. فكنا نعظهم ونحوزهم ونفهمهم بأن الصلاة هي من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وأنه لا ينفع مع تركها عمل وإن جل. فكانوا يتوبون ويرجعون فنأمرهم بالاعتناء والاجتهاد في إقامة الصلوات بشروطها وأركانها وسننها كما أمر الله، ثم الرجوع إلينا بعد ثلاث. فكانوا يمتثلون ما طلبوا به ويرجعون بعد. فإذا تحققنا صدقهم كنا نلقنهم الطريق القادري الذي سنأتي بعد، بحول الله على سندنا فيه. وكان الكثير منهم يطلبوننا في الإجازة لهم بما ذكر كتابة، فكنا نساعدهم بذلك.

وممن زارنا بهذا البلد بنتا صديقنا المرحوم المبرور الهمام المشكور حاجي أحمد حاجي سليمان الميمني، وهما حبيبة وفاطمة مدني، وأنجالهما الصغار، وكل منهما قدمت لنا هدية وطلبت منا الدعاء. واستدعتنا كل منهما لمنزلها الخاص. فلبينا طلبهما وذهبنا لمنزل كل منهما بمحضر زوجيهما، ودعونا الله لهما ولوالدهما بما الرجاء بمنه سبحانه قبوله.

وممن زارنا الأستاذ الشيخ سليمان مرداد. وهذا الرجل إمام وخطيب بجامع مسمى بـ " منارة مسجد" وله مكتبة عربية جيدة، وتقدمت له بمكة مجاورة، وهو الآن يتعاطى التجارة بالهند، وقد كان من المترددين علينا، واستعمل لنا مأدبة حافلة بداره، جزاه الله خيرا. وبيت مرداد بمكة شهير، ومن فوائده الزراعية: خذ بذر البطيخ

الأخضر أو الأصفر، أو أي بذر شئت ويبسه في لعابه، ثم أفركه بعد اليبس حتى إذا حان وقت الزراعة، يعني بعشرة أو بخمسة عشر يوما ، خذ ماء سكر أو ماء عسل، واجعل فيه ما شئت من أنواع الطيب ونقع البذر المذكور فيه ساعات من النهار حتى إذا استوى انزعه ويبسه في الظل على حصيرة ثم ازرعه. فإن طعمه يأتي موافقا لما نقع فيه من طيب وعسل أو سكر ونحو ذلك، وهذا مجرب. ومن المجربات منه أيضا: خذ عدة قضبان من العنب الملون المشكل، ثم أحزمها واجعلها داخل قزديرة (إناء للفرس) وحرك بها دالية كبيرة بعد قطعها على العادة في ذلك. فإذا كبرت وأثمرت تمتزج تلك القضبان وتلد عناقيد ملونة في غصن واحد.

وممن زارنا بمحلنا، وأخذ عنا الطريق القادري، الشاب الحسن السمت والهدى،جان محمد يوسف جامي، محله " لادوله هاؤس" وهذا الشاب صديق لأبي بكر حاجي سليمان أخينا.

وممن كان يجالسنا كثيرا، ويسلي غربتنا بحكاياته الطريفة، وفوائده المنيفة، صاحب المحل والدار التي كنا نزولا بها مع اللحام، وهو التاجر الذاكر الشاكر، التالي لكتاب الله عز وجل، الحاج عبد الله آل الفضل الإيراني العربي السني نزيل بومبي، هذا الرجل له بالبلد المذكور تجارة واسعة وغنى لا بأس به ، وله عدة نساء وجملة أولاد، منهم ولدان شابان أديبان لطيفان، اسم أحدهما محمد شريف والثاني محمد عقيل، الأول يعين والده في تجارته، والثاني يقرأ بالمدرسة ليتخصص في الطب الإنجليزي، وهذا عنوان والدهم السابق الذكر، وهما معه: بومبي حاجي عبد الله كاظم، باب الله تالاو ميرزا علي إستريت عدد ١٤ عمر كهاري، نمرة البوسطة٩ .

وممن زارنا بها أحد أهل فاس المقيمين قديما ببومبي وكان قبل من كبار الأغنياء لكن الآن أفقره القمار، اسمه السيد داوود مغربي بقرية مهايم وممن زرناه نحن ببومبي التاجر الشهير الذكر، الطائر الصيت المعروف بأعماله الخيرية الإسلامية، الحاج علي زينل، التاجر في اللؤلؤ والجوهر. غير أننا صادفناه مسافرا بلندرة، ووجدنا أخاه إبراهيم يوسف ونائبه الشيخ عبد القادر، وممن استدعانا لضيافته بهذه البلدة، ناس من أصهار حاجي أحمد سليمان.

وليس بالهند شيء من البرد، فبمجرد وصولنا لبومبي أزلنا جميع ملابس الشتاء، ثم أصبحنا لا نكاد نستسيغ الماء إلا بالثلج. والناس بالليل ينامون بالأسطحة وبالشوارع، وفي الغرف والمنافذ مفتوحة طلبا للبرد. وكثيرا من الفقراء والأولاد عراة، والأغنياء مقتصرون على ألبسة هوائية غاية في الرقة.

٢- أعمالنا في بومبي:

وقد كنا مشتغلين طول المدة التي قضيناها في بومبي بقراءة أورادنا صباحا، ثم نتناول طعام الفطور ، وهذا لا يتم غالبا إلا قبل الزوال بنحو الساعتين، ثم بعد إما أن أنام أو أطلع أو أذهب إلى بعض مساجد البلدة القريبة، أتلو فيها، وأدعو وأتضرع إلى الله وأبتهل إليه في اللطف والفرج والخلاص، حتى إذا كان العصر تغديت ثم صليت. ثم بعد ذلك نخرج للفضاء فإما ركبنا سيارة صاحب المنزل الحاج عبدالله، وإما اكترينا من الخارج، وذهبنا لأطراف البلد نتجول ونشم الهواء النقي، ونتفسح ونعلل النفس، فنبقى كذلك إلى صلاة المغرب أو العشاء، ثم نرجع من حيث أتينا.

وكان لنا بهذه البلدة مدة،ونحن على أحر من جمر الفضاء،لا هواء البلد وافقنا، ولا الطباع ملائمة، ولا نحن في سرور وانبساط.

لكن تبيّن أن الحبس الذي كنا نتوهم، إنما كان بالنسبة إلينا نحن بهذا البلد، لأنه علينا بها من الهم والغم وضيق النفس والقنوط، ما كنا بسببه في حبس معنوي نفسي. ولولا أننا كنا نروح النفس عشية بالخروج للبساتين والبرية لمتنا ضيقا وكربا. إذ مكثنا ببومبي شهران بلا شغل ولا فائدة. ولولا اللطف الإلهي لتفجرنا بها دما. ولكنه سبحانه إذا قدر لطف ودبر.

هذا و لم يزل الرجال والنساء من أهل البيوتات الكبيرة وغيرهم، على اختلاف الطبقات يترددون إلينا ويأتوننا بالسيارة للذهاب لبيوتهم ليتبركوا بنا هناك. ويكلفوننا بما لا يقدر على تنفيذه، أو الخلاص منه إلا الله القادر المصوِّر، ومع ذلك تجدنا نلاطفهم ، وندعوا الله لهم ونلقنهم بعض أذكار وأدعية لمن فيه الأهلية منهم، ونحضهم على أداء الصلوات في أوقاتها، إذ قلّ من يصلي منهم ولا سيما النساء. وإن كانت مساجدهم آخذة حقها من العمران بالمصلين الذاكرين، ونحذرهم من تعاطي الربى والقمار اللذين فشيا فيهم حتى أفقرا الكثير منهم، ولكن الكل كان منا احتسابا لله، قياما بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأداء للأمانة التي طوّقنا الله بها.

وكثيرا ما كانوا أيضا يتواردون علينا لكتابة الحجب والرقي، فنكتب لهم ما تيسر من آيات الكتاب وأسماء الله الحسنى، وكم شاهدوا من أثر جميلة لتلك الحجب بسبب اعتقادهم الطيب ونظرهم الحسن، ولو كنا تعدينا لهذا واستعملنا له ما يستعمله الغير لحملنا على مبالغ هائلة من المال. وذلك أننا رأينا غيرنا من أبناء العرب الأفاقين وغيرهم، إذا أتوا الهند يستعملون عنوانا ضخما على قطع كبيرة تعلق بأبوابهم، قد كتبت باللغتين الهندية والإنجليزية، يلقبون أنفسهم فيها بألقاب ضخمة وأسماء كثيرة، في جماعة من الناس يقومون بالدعاية

لهم. ثم بعد ذلك يصبرون على استعمال أشغالهم، فإن أتقنوا هذا وكانت سيرتهم حسنة، وأحوالهم مستحسنة، فإنه لا يمضي عليهم وقت قصير إلا وتنكب عليهم الأموال والدراهم، على قدر جودة أساليبهم ومهارة طريقتهم وإتقان الدعاية لهم، وحسب سلوكهم.

هذا، وقد كنا صحبنا معنا من مصر، مكتوباً توصيةً بنا. ولما دفعناه لصاحبه اختار أن يكتب على وجه المحبة والصداقة لوكيل الملك ببومبي، وهو المسمى" قمر الدين طيبجي". ولما مكنا هذا المكتوب من هذا الوكيل، كلف بنا رجلين من وزراء ملك حيدرآباد صادفهما الحال عنده آتين من دهلي، فواعدونا خيرا، واستدعونا للضيافة بحضرة الملك بحيدر آباد ثم سافروا.

وبعد أن عزمنا على مكابدة السفر لها، تواردت على الأخ سيدي المكي رفيقنا مكاتب بمصائب وقعت بداره، أولا جاء من الشام خبر وفاة مقعدة عنده في البيت اسمها الزهراء، فشق ذلك عليه جدا، ثم بعد ذلك جاءه نعي ولده الصغير سيدي حمزة الذي مات في شهر رمضان عام ١٣٥٣هـ وكان عمره سنة ونصف فشق عليه ذلك أكثر وأكثر. ثم جاءه خبر ثالث، وهو نعي صهرته، أم زوجته السيدة فاطمة الحلو، وهي السيدة فطومة التازي، فشق عليه ذلك أعظم من السوابق حتى هم بالرجوع، والأمر لله. ثم جاءه خبر رابع وهو نعي ابنه الصغير الثاني، سيدي صلاح الدين، شقيق سيدي حمزة المتوفى السابق، وقد توفي في شهر ذي القعدة عام ١٣٥٣هـ، وكان عمره تقبله الله ثلاث سنوات، فكاد مولاي المكي يفقد صوابه إذ هذه رابع جنازة وقعت متتالية بداره. ثم جاءه خبر سقوط جدار كبير ببيته وبعد ذلك قال:" لا يمكنني أن أزيد على هذا ولا خطوة! فإن شئت الزيادة وحدك فدونك!" فعند ذلك ساعدته على الرجوع معه

غير أني طلبت منه الوصول لحيدرآباد وميسور فقط، فساعد على ذلك.

ولما تم ما أراد الله من إقامتنا ببومبي تلك المدة البالغة شهرين، وبعد ما وعدنا به وزير خارجية حيدرآباد، وهو المعبر عنه بلسانهم "نواب مهدي يارجنك" من تهيئة محل لنزولنا عند الملك، وذلك بمكتوب أتانا منه، وقد استفهمونا فيه من وقت وصولنا وفي أي محلة منها يكون نزول البابور (القطار) بنا كتبنا لهم وأعلمناهم وفينا لهم ما طلبوا وسافرنا لهم يوم الاثنين ٨ ذي الحجة عام ١٣٥٣هـ على الساعة الثانية بعد الظهر.

ولما وصل الوقت المعين جاء لوداعنا من أهالي بومبي والعرب النازلين بها جماعة، واستعد لمرافقتنا في ضيافتنا ورحلتنا تلك من كنا في ضيافته السيد عبد الحميد اللحام الدمشقي والتاجر الأبر محبنا حاجي عبدالله كاظم ، العربي الإيراني وأخوه ونزيله الصالح البركة حاجي أحمد كاظم من بلدة دبي من خليج فارس، وهكذا ركبنا القطار الحديدي، بثمن قدره ٨ ربيات للشخص في الدرجة الثالثة ذاهبين إلى حيدر آباد.

٣- غرائب في بومبي:

لما كان منتصف شوال، خرجنا للتفسح والتنفس والاستراحة من المكث بالبيت،وذلك مع الأخ اللحام،فركبنا لذلك سيارة وقفت بنا عند جنينة الحيوانات، فدخلناها بدون عوض(ولا كذلك جنينات البلاد الأخرى)، وكان الوقت وقت غروب. وبينما نحن نتجول بحيواناتها قفصا قفصا إذ وقفنا على بيت من قضبان الحديد بداخله عرين مبني به عدد من النمور. لما وقفنا حذاءها، وأمعنا النظر في تلك الحيوانات المفترسة الجبارة، أخذت تلك النمور تتجول متبخترة

أمامنا كأنها تنافسنا وتتطاول علينا بما أوتيت من حول وطول وقـــوة. ثم إن رفيقنا اللحام كانت بيده سجادة صوف غليظة من نسج العجـم للصلاة عليها والجلوس. فأخذ المذكور يداعب تلك النمور ويراوغـها بأهداب تلك السجادة المذكورة. فلم يلبث أحدها أن اختطفها مـــن هدبها المذكور بيديه وفمه، وقبض عليها بيد الضنين. فظننا ســـهولة الأمر، وحاولنا نحن الثلاثة انتزاعها منه، فلم نقدر. ثم صار يجتذبها منا ليدخلها لعرينه.

فطلبنا من أعاننا على اجتذابها منه، فطلب النمر أيضا ذلـــك، وجاءت ما بقيت من النمور، وصارت تعونة صاحبها تجتذبها معـــه، وتنتشلها منا إلى أن غلبتنا بأجمعنا عليها، وأدخلتـــها معـــها لداخـــل العرين، ثم إنه استبد بها كبيرها دونها، فتركتها النمور الأخرى لـــه، وذهبت خوفا منه وهيبة، واقتصرت على رمقها له بعيونها من الخارج، ونحن ننظر هذا كله. ثم إن ذلك المستبد الكبير صار تـــارة يشـــمها ويتمسح بها، وتارة ينام عليها، وطورا يحاول انتهاشها وافتراشها، مـــع أنها سجادة صوف غليظ عجمي محكمة النسج مثبوتة القوى. ثم إنـــه اجتمع علينا عدد عديد ممن كـــان بالجنينـــة المذكـــورة، يتعجبـــون ويضحكون. ثم إننا دهشنا من جهتين، جهة ضياع هـــذه الســـجادة الثمينة التي لا يقل ثمنها إذ ذاك عن ثلث جنيهات ذهبية، ومن جهـــة الخوف من اتهامهم لنا بأننا نحن الذين تهجمنا على تلـــك الحيوانـــات السجينة وتعدينا عليها داخل أمكنتها، ويقلبون المسؤولية علينا.

ثم إننا قلنا للحام رفيقنا، لا بد من بحثك عن خـــادم الجنينـــة ليستخرج هذه السجادة في مقابلة شيء، أما إن بقيت للصباح، فـــلا مطمع فيها. فذهب، فإذا هو قد رجع بجماعة معه من الهنود، فـــأخذ أحدهم قضيبا من حديد، معوج الرأس طويـــل، فأدخلـــه لداخـــل

القفص، وحاول اختطاف السجادة وانتشالها به. فكان الوحش كلما اقترب منه المخطاف يهرب بالسجادة إلى ناحية أخرى. وهكذا إلى أن أعيانا الأمر ونزل الظلام، وصرنا نفكر في تركها. ثم إن الخادم فتح باب قفص آخر، اعتادت دخولها إليه وقت الأكل، وطرد السباع إليه. فذهبت إلا صاحب السجادة، ثم أخيرا بدى له اللحاق بها، فدخل والسجادة بفيه. ثم ان الخادم لم يزل يكيد بها ويحتال إلى أن لجأ صاحب السجادة عند باب القفص واحتال إلى أن أخذ بطرفها وأمر الحاضرين بمساعدته، فصار الكل يجتذبها معه، وهم نحو العشرة أنفار والكل في جهد جهيد. والحال أن الخادم لم يزل يزجر النمر بالقضيب الحديدي الذي بيده فتارة يركزه بفمه وأخرى ببطنه وطورا بغيره من بدنه، إلى أن خفنا على الحيوان والمسؤولية به. ثم بعد الجهد الجهيد والكد المديد، انتزعنا السجادة منه. فإذا قد مزقتها أنيابه، وخرقتها ونهشتها أظفاره.

فيا للعجب هذه سجادة صوف من النسج العجمي المتين السميك، لا يقدر على تمزيقها عشرون نفرا بأيديهم المجردة، قد فعل بها هذا الحيوان من التمزيق والتقطيع ما فعل، و لم يبال بهذا الجم الغفير الواقف ضده. فكيف لو ظفر بإنسان وكان مطلق الحرية، كيف يكون الحال، اللهم إنا نعوذ بوجهك، ونسألك باسمك العظيم أن لا تحمّلنا يا مولانا ما لا طاقة لنا به.

وفي قصتنا مع النمر يقول أخونا الشاعر الأديب البارع سيد محمد الطائع الكتاني:

ألا أيها الخلان مسكما الخير

سيأتيكما من ربي الفوز والأجر

لئن كنتما أعياكما السعي للمنى
فللسعي زاد المراد هو الصبر
فإن تصبرا فيما تروم تدركا
مرادكما والصبر غايته النصر
أعيرا إلي مسمعا وترويا
أحدثكما عن قصة ساقها الدهر
وذلك أن اثنين كانا ببلدة
غريبين فالشامي خلهما البر
فدان غروب الشمس والقوم رائحون
قصد نشاط منه ينشرح الصدر
وعادة قلب الشاعر الحزن في المسا
وللقلب بالروحات في حزنه زجر
لذلك أموا موضع الوحش عليهم
يرون به صنع الذي أمره الأمر
إله برى هذي البرايا لحكمة
له الحكم والسلطان والبطش والقهر
فإن يخلق الآيات في الأرض والسماء
فقد جعلت عبرا لمرء به نكر
هو الوحش في أنواعه وصفاته
وآياته في الخلق ليس لها حصر
وحين رأوا صنع القدير بوحشه
ومن بينه وحش يقال له النمر
رأى الشامي أن يبلى بضرب كبيرهم
بسجادة مثلي ليكشف السر

فهاج عليه صائلا متوعدا

وقدرته البأساء ليس لها حذر

وعض على السجادة النمر ساحبا

وإخوته في سحبها لهم أزر

وحين تولاها استقلّ بأخذها

وذلك طقس الغالب الظلم والقسر

وإخوته قد نازعوه فردهم

وفي أخذها من دون إخوته جور

وجمع غفير حاولوا منه ردها

فلم يستطيعوا والقوى له الظهر

وبعد شديد الجهد خارت له القوى

ولم يبق منها فيه كثر ولا نذر

هنا قد رأوا أن يستردوا متاعهم

فردت ولله الجلالة والشكر

وقد مزقت أطرافها وتلوثت

وذلك أمر الله فيه لهم سر

فذي قصة النمر الذي قد سمعتها

بها عجب تفضي المسامع والفكر

وفي ذكر مغزاها يطول كلامنا

ومحورها من جار حق به الجور

والغريب أنني رأيت نمرا قد رباه شخص حتى صار مألوفا كالقط.

ولما ذكرنا هذه القصة لإخواننا هناك، تعجبوا وكل حكا لهـــا نظيرا، من جملة ذلك أن رجلا دخل في بعض بـــلاد الهنـــد، لجنينـــة حيوانات ووصل فيها لجماعة من القردة. فقيل له" إحذر أن يختطفـــوا

لك عمامة أو ثوبا!" . فلم يلبث أن انقضت إحداها على عمامتـــه، ولكنها لم تتمكن منها، بل سقطت على الأرض. قـــال: فرفعتـــها! ولكن شخصا آخر كان على رأسه شال نفيس وكان غافلا فلم يشعر إلا وقد اختطفته قردة وأدخلته داخل قفصها، ثم صارت تنشره أمامه، وتريه محاسنه، كأنها تكيده به، ثم تارة تجعله على رأسها لاوية له عليه كالآدمي، وتارة تنشره علا الأرض وتجلس عليه. وبينما هي فرحة بـه مكيدة لصاحبه به وهي عابثة، إذ ذهب لقيم المحل وأعطاه دراهـــم، وطلب منه استخراج الشال، فعمد الآخر إلى لحم قد أتى به، وأخـذه لمحل أكلها وناداها كعادته. فلما شعرت بالأكل غابت عن حســـها وتركت الشال. فجاء إليه وأخذه ورده إلى صاحبه. فلما أتمت أكلها. ورجعت للشال فلم تجده، صارت تصيح وتبكي وتضرب وجهـــها وتبصق على صاحبه كالآدمي. فكان الكـــل يعجـــب مـــن فعلـــها وصنيعها. ولله في خلقه عجائب.

قلت: وقد شاهدنا من أخلاق هذه القردة، وتشبهها بالآدمي، العجب، فمن ذلك أني رأيت إحداها أخذت لفافـــة مـــن الدخـــان المشروب، وقد شعلت لها، فصارت تشربه بين أصبعيها كـــالآدمي، ورأيت قردا كبيرا أسود أشيب الوجه وقد جعل له فراش ينام عليـــه ولحافة يتغطى بها إذا أراد. فكنت تراه فوق فراشه وغطائه كـــالآدمي لا تكاد تفرق بينهما.

وفي غالب الأحيان كنا نقتصر على الذهاب إلى جبل مطـــل على بومبي، يعرف بلسانهم" وال كيسره" معناه بالعربية" جبلْ قيصر". وهذا الجبل بأعلاه جنينة عمومية واسعة نبيهة على الطـواز الأوروبي ، غاية في الحسن والسعة والبهجة والنضارة، يقصدهـــا عشـــية عامـــة الأهالي، ولا سيما يوم الأحد حيث الناس في راحة من عناء الأشـــغال

ذلك اليوم ، فلا تكاد تجد به إذ ذاك موضعا فارغـــا. يجتمـــع فيـــه المسلمون وغيرهم على اختلاف الملل.ومع ذلك ترى كلا عندما حـــد له،فلا ترى خمرا ولا تبرجا من النساء. ولا وقاحة من أحد، ولا فسقا ولا فجورا، ولا شيئا مما يوجد في مثل هذه المحلات بالبلاد الأخـــرى، أيا كانت. ولا تكاد ترى بهذا المنتزه مسلمة أصلا، اللهم إلا نادرا بعد العشاء.كنا نصعد لهذا المحل عشية كل يوم تقريبا نتسلى بذلك عمـــا كان اعترانا من القنوط والملل والسآمة من طول المكث في بومبي،ولـــو لا ذلك لفاضت أرواحنا.

والجبل المذكور، إذا أمسينا به يطول مكثنا به لبعـــد العشـــاء غالبا للتفرد واستنشاق الهواء الطلق العذب، وتمتـــع النظـــر بمنـــاظره الجميلة وإشرافه على البلاد كله من جهة، وعلى البحر وما فيه مـــن المراكب والبوابير (البواخر) من جهة. أما إذا كان الليل، فترى منـــه البلد ومصابيحها الكهربائية كأنها سماء صاحية قد زينت بكواكـــب وشموس وأقمار. منظر لا أجل منه. وكثيرا ما نذكـــر تغـــزل أحـــد مشايخنا الشاميين اللذين يعرفون هذه الديار بهذا الجبل، وثنائه عليـــه، ومبالغته في وصفه، وهو شيخنا العلامة المشارك الصوفي المسن مولانـــا الشيخ أمين سويد الدمشقي، رحمة الله عليه.

ومن غرائب هذا الجبل أنه، بينما نحن ذات يوم صاعدون إليه من طريقٍ به كثير من بيوت الأصنام ومواخر المجوس ومعـــابدهم، إذ مررنا بشبه كوخ، أو مغارة بداخلها رجل من المشركين، عاري البدن كله إلا السوأتين، قد لطخ بدنه ووجهه وكل أعضائه بالرماد، وانقطع للعبادة على هذه الحالة وحوله أناس من جماعته، كأنهم يتبركون بـــه ، وبيده مسبحة قصيرة، وهو يسبح بها. فقلنا له، بعد أن وقفنا للتفـــرج عليه:" ماذا تقول بهذه المسبحة؟ ". وبعد أن لاطفناه بمعسول القـــول

بواسطة ترجمان أجاب:" أنتم تقولون " الله" بلغتكم، ونحن نقول مثل ذلك بلغتنا!" كأنه يتستر منا على شركه. فقلنا له: " وما هذه الحالة التي أنت عليها؟" فصار يعتذر بأنه ترك الدنيا، وأنه يريد التقشف، وكذا من هذا النوع، وبينما نحن في مراجعته والترجمة له، إذ أقبل بعض المشركين من طائفته وصاروا يعنفوننا، كأنهم خافوا منا تحقيرا له، وإهانته. فقلنا لهم: " إنما نحن سواح نريد الوقوف ومعرفة الحقائق!". ثم انصرفنا.

ومرة أخرى صادفنا بأعلى الجبل السابق الذكر شابا حسن الصورة بهي الطلعة، لطيف الشمائل، أسمر اللون، براق الثنايا، جالسا في إحدى روضات الجبل جلوسه للصلاة. فقصدناه وحيياه، فرد علينا بتبسم ولطف فقلنا له: " ماذا تعمل هنا؟". فقال:" أنا جالس!". فقلنا له:" وما عملك؟" قال:" قد تركت الدنيا والبلد والأسواق، وأنا مقتصر على هذا الجبل، أجلس فيه حيثما شئت!" فقلت له:" ومن أين تأكل؟" قال:" أنا لا أطلب من أحد شيئا، إن أتاني شيء بدون طلب أكلت، وإلا صبرت وأنا في غاية السرور والانبساط!" وكان أسود ذا شعر ينزل على كتفيه مشيط نظيف، مؤتزر بمئزر قد غطى ثديه. ثم قلنا له: " وهل أنت ممن يعبد الحجر كهؤلاء؟" فقال: " لا. أنا لا أعترف بذلك" فقلنا له:" لو كنت مسلما لكان خيرا لك" فقال:" لا يضرني ذلك" فقلنا له:" أسلم! " فقال: " أفعل! " ثم صار ترجماننا يلقنه الشهادتين، فصار ينطق بهما. فقلنا له:" عرفه بمعناها!". فصار يعرفه وهو يعترف. فقلنا له: " وهل تذهب معنا للشام؟" . فقال:" نعم من الآن إن أردتم! فناوله الأخ مولاي المكي دريهمات، فأشار له بالقائها بين يديه، فألقاها. والعجب أن هذا الشاب فرح مسرور بحالته، لا يبدلها بالدنيا وما فيها، ولما أطلنا عليه الكلام أقبل

بعض الهندوس، فانصرفنا عنه، خوفا من القيل والقال. وقد أثر علينا أثراً لا مزيد عليه لغرابة أحواله عن المألوف. هذا وبعده قصدنا ذلك المحل ونواحيه مرارا قصدا لرؤيته وتكرر محادثته، فلم نعثر على أثره بعد. ولله في ملكه أسرار وعجائب.

ومن ذلك أنا لما وصلنا مياه بومبي عند الدخول لها، رأينا بها جزيرة متصلة بالبلد وسط البحر. فلما أمعنا النظر فيها، غلب على ظننا أنها حبس للحكومة هناك. هكذا بقينا على هذا الاعتقاد المخطئ إلى أن كانت هذه الأيام، استدعانا بعض الناس للضيافة بتلك الجزيرة، فإذا هي قد أسست على ضريح رجل من الصالحين ذي مقام، في جامع تقام فيه الصلوات الخمس ولأهل بومبي فيه اعتقاد، ويجعلون له هناك موسما سنويا. وقد مشينا إليها وقت تراجع البحر ، على الأقدام، وزرنا ضريح وليها المسمى" حاجي علي"، رجل من الشهداء الصالحين، والذي أكرمنا بها هو عثمان درويش، أحد أصهار المرحوم حاجي أحمد، وقد صلينا بجامعها، ودعونا الله عند مقام ساكنها المذكور.

وقد وجدناهم قد رفعوا في الأسواق والشوارع البقر المعبود، وعهدنا به المرة الأخرى منتشرا في الطرقات والمسالك بدون نكير. ولعل الحكومة رفعت ذلك حسما لما كان يقع بسببه بين المسلمين والهندوس من المذابح والفتن.

وكنت أشعر بنفسي أنني غريب مسكين حزين، ملقى وراء البحار، لا أدري ما عاقبة أمري، ولا ما نتيجة سفرتي التي طالت حتى ملتني ومللتها، وطلبت فراقي وتمنيت فراقها، فتراني إذا ضاق بي القضاء واشتدت علي الأوهام، وضغط علي القضاء أذهب لبعض مساجد البلد الخالية، فأشكو إلى ربي ومولاي حالتي واضطراري

وأبكي حتى تبل دموعي لحيتي، ثم أرجع ولا شك أنه سبحانه سيفرج الكرب ويبدل حال العسر باليسر، وما ذلك على كرمه بعزيز.

٤- فوائد دينية من بومبي:

وقد سألني الأستاذ الشيخ سليمان مرداد، خطيب " منارة مسجد" ببومبي عن أقرب الطرق إلى الله. فأجبته بأن أفضلها ذكر الله عز وجل، لقوله عز ذكره في الحديث القدسي:" أنا جليس من ذكرني". وإن أشرف أنواع الذكر هو: " لا إله إلا الله" لقوله عليه الصلاة والسلام:"أفضل ما قلته أنا والنبيّون من قبلي:"لا إله إلا الله." وإذا انضاف إلى ذلك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، مع الملازمة واستحضار صورته، صلى الله عليه وسلم، المقدسة، المأخوذة من كتب السير، والتي كان عليها في الدنيا. فإذا انضاف إلى هذا امتثال الأوامر واجتناب النواهي قدر المستطاع، فلا أفضل ولا أحسن من هذا. وحينئذ يكفي الإنسان مع ذلك ما تيسر من النوافل، قليلا كان أو كثيراً، والله أعلم.

ومما وقفت عليه أيضا في كتاب "**خزينة الأسرار**" للعلامة الشيخ محمد حقي النازلي، قال: روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل:" يا جبريل هل تنزل من بعدي إلى الدنيا؟ ". قال: " نعم، أنزل عشر مرات وأرفع عشرة أشياء من جواهر الأرض!". قال:"ما ترفع من الأرض يا أخي جبريل؟". فقال:" الأول: أرفع البركة من الأرض، والثاني: أرفع الرحمة من قلوب العباد والثالث: أرفع المحبة من قلوب الناس ، والرابع: أرفع الحياء من النساء والخامس أرفع العدل من الأمراء، والسادس: أرفع الصبر من الفقراء، والسابع: أرفع السخاوة من الأغنياء، والثامن: أرفع العلم من العلماء، والتاسع: أرفع

القرآن، والعاشر: أرفع الإيمان". منه بلفظه. وانظر من خرج هذا، وما هي درجته من الصحة.

وقد سئلت وأنا بالهند، عن حكم صلاة الجمعة على من أقام ببلدة من بلاد النصارى التي بها مساجد مشيدة، كلوندرة وباريس. فأجبت بما نصه:

" الحمد لله، المسعى إلى حضور الجمعة واجب عين على كل مسلم، لكن بشروط، منها ما هو شرط أداء، ومنها ما هو شرط وجوب. شروط أدائها خمسة:

الأول الاستكان، والثاني الخطبة قبل الصلاة، والثالث وجود المسجد على الصفة المخصوصة، والرابع وجود الإمام الحر المقيم، والخامس وجود الجماعة وأقلهم على مذهب مالك١٢ رجلا فأكثر باقين لسلامها. وشروط وجوبها خمسة أيضا: الأول الإقامة ، فلا تجب الجمعة على مسافر، فإن نوى إقامة أربعة أيام فأكثر وجبت عليه تبعا للمقيمين. والثاني أن يكون له عذر مانع من حضورها كالمرض والمشقة الشديدة، أو مقابلة مريض قريب، أو الخوف على النفس أو المال، أو الطين والوحل، ونحو ذلك. والثالث الحرية، فلا تجب الجمعة على عبد. والرابع القرب بحيث لا يكون منها وقت وجوبها عملي أكثر من ثلاثة أميال، وهو الفرسخ، والخامس الذكورية، فلا يجب على امرأة. ولذلك يقول خليل: " وبجماعة تتقرى بهم قرية". أي تستغني وتأمن بأن يمكنهم الإقامة بها صيفا وشتاء، والمدافعة عن أنفسهم في الأمور الكثيرة، أي كمدافعة اللصوص والسراق ونحوهم، لا النادرة،وذلك كالعدو الكثير.قال خليل: " سلاحها"، أي أن هؤلاء الذين تتقرى بهم القرية،وتستغنى بهم، لا يجدون لا بخمسين ولا بثمانين ، بل كل جماعة حصل بهم للقرية الأمن والكفاية تجب عليهم

الجمعة، وإذا وجب عليهم، فإنه يكفي في صحة الجمعة بإثني عشر منهم، تأمين الشروط، باقين لسلامها.

فعلم من هذا أن البلدة إذا كان بها مسجد جامع، وكان بها من المسلمين إثني عشر مستجمعين للشروط، فضلا عن وجود آلاف المتألفة كلندرة وباريس ونحوهما، فإن الجمعة تجب عليهم ولو كانت البلدة بلدة كفر أصالة. ويتعين عليهم إقامتها وإظهار شعائر الإسلام كلها بها، وتصير البلد بهم إذا كانوا هكذا وأمنوا على أنفسهم في إظهار شعائر الدين دار إسلام وإيمان، وتكون الإقامة حينئذ بها أولى لما يرجى اهتداء بعض الكفار ورجوعهم إلى الدين الحق. وأما استئذان السلطان إقامة الجمعة فإنما هو عند المالكية شرط كمال. على أن مسجد باريس أقيم بإذن من سلطان المغرب، والجمعة فيه تقام باسمه، على ما في ذلك، والله أعلم. قاله وكتبه عبد ربه محمد الزمزمي الكتاني، كان الله له".

٥- المذاهب الإسلامية في بومبي:

كان بجوار منزلنا بباب الله تلو ببومبي جامع للشيعة مهم، اسمه"مسجد علي". ومن المعلوم أن العداوة التي بين السنة والشيعة بغالب البلاد الإسلامية أوجبت انشقاق الفرقتين انشقاقا كليا تاما، حتى أن فرقة منهما لها مساجد خصوصية لا تدخلها الفرقة الأخرى، حتى كأنهما أهل دينين اثنين. فقلت ذات يوم لأدخلن لهذا المسجد، ولأصلين فيه مع القوم، وأنظر إلى أحوالهم، وماذا يكون. فدخلت إليه،فإذا هو آية في السعة والزخرفة والإتقان والنظافة وكثرة المياه، وإتقان المظاهر (دورات المياه) والحمامات وغير ذلك. فقلت: " أصلح الله المسلمين يقاطعون إخوانهم حتى في المعابد والمساجد، لأذكرن اليوم وردي بهذا المسجد، ولأصلين فيه مع الناس، ولو بإفراد النية،

لأن الشيعة لا يغسلون الأقدام في الوضوء وإنما يقتصرون على مسحها".

ولما وصل وقت الظهر سمعت الأذان بالمنارة، غير أني لم أفقهه لبعده. ثم حضر الإمام فإذا هو رجل أشيب، ذو لحية طويلة مخضوبة، وعمامة كبيرة بيضاء ذات عذبة، يرتعد من الكبر. وكانت بحذاء المحراب سجادة قد أعدت له، مفروشة، ويمحل السجود منها ثلاثة أو أربعة أقراص من الطين الذي يؤتى به من أرض كربلاء، مدافن أهل البيت للتبرك، يسجد الشيعة عليه تبركا وهذا من غلوهم في بدعهم، وسبحتان قد مدتا عرضا، وعلى كتفيه عباءة سوداء، فأبدلها له المؤذن بأخرى بيضاء للصلاة. فصلى التحية، وعند إرادة الفريضة أعاد الأذان بين يدي الإمام وزاد على الشرعي المتعارف عليه، " أشهد أن عليا أمير المؤمنين ولي الله"وفي المرة الثانية"حجة الله"، قالها مرتين. وعند الختام زاد "حي على خير العمل". وكان المؤذن أثناء الأذان يتكلم ويحادث من يليه،وبعد فراغه أقام الإمام الصلوة، لا المؤذن كما عندنا، ثم اصطف الناس وراءه، لا على طريقة إتمام الصفوف كما هو السنة، بل صف الحاضرين أرباعاً أرباعاً وراءه. ثم كبّر،فكبرنا معه، فكانوا كلهم سادلين أيديهم على عادة الشيعة. فأين ما روي عن الإمام علي كرم الله وجهه، كما في البخاري:" كنا إذا دخلنا الصلاة قبضنا أيماننا على شمائلنا، فلا تزال كذلك إلى أن نحك جلدا أو نصلح ثوبا". ثم كانوا لا يرفعون في محلات الرفع الثلاثة المتواتر الرفع فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم،ويرفعون في ما عداها عند كل خفض ورفع. وكان يرفع صوته بالتسبيح والدعاء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم،عند السجود والركوع والرفع منه،ويجلس للاستراحة عند كل قيام.ولما كان السلام، لم يلتفت عنده لا يمينا ولا شمالا كما هو السنة، بل ضرب على فخذيه ثلاث ضربات يكبر فيها.ولم يتحول بعده عن القبلة كالسنة في الإمام. وكانوا، إماما ومأمومين يسجدون على

عوائد الشيعة، على أقراص طينية، يأتون بها من أرض كربلاء عند مصارع آل البيت ثمة للتبرك، على قدر الكف وأكبر، يضعون عليها جباههم عند السجود، وتبقى أنوفهم بالفضاء لا على الأرض كما هو الواجب في السنة من تمكين الجبهة والأنف على الأرض عند السجود. ثم بعد الصلاة، صلوا الراتبة ثم قام مؤذنهم فأعاد الأذان الأول، واصطفوا حوله كأنهم يريدون الجمع بين الظهرين جمع تقديم في الحضر بلا سفر ولا ضرورة.وهذا لا يوافقهم عليه أحد.وعند هذا الحد انصرفت، وخرجت وأنا شديد الخوف منهم ومن إذايتهم لي، لأنهم كانوا ينظرون إلي شزرا. فذهبت لمسجد آخر سنّي وأعدت به صلاة الظهر.

فهداهم الله من طائفة، ما أشد ابتداعهم وخروجهم عن جادة المسلمين، ونكولهم عن طاعة أئمة الموحدين. الشيء الذي لا يقبله عقل، وهو الحامل على انعزالهم وانفرادهم عن سائر الأمة الإسلامية، حتى اتخذوا لأنفسهم شعارا خاصا ومساجد خاصة لا يدخلها غيرهم، ولا يشاركهم فيها أحد، كأنهم على غير ملة القرآن والسنة المحمدية.

وقد وقفنا ببومي هنا على تأليف في العلم النبوي، كان سيدنا الوالد، عليه الرحمة والرضوان اجتمع بمؤلفه عام حجته الأولى سنة ١٣٢١هـ بالمدينة المنورة، ولازمه. واسم هذا التأليف" **الدولة المكية بالمادة الغيبية**"، طبع بالهند ببلدة بريلي، قرب دهلي، بطبعة أهل السنة والجماعة من ولاية هندستان، للأستاذ العلامة المشارك أحمد رضا خان المحمدي السني الحنفي القادري البركاتي. توفي رحمه الله ببلدة المذكورة سنة ١٣٤٧هـ. وهذا التأليف كان سيدنا الوالد قرضه لصاحبه. وكان مؤلفه رحمه الله شديد الحرص على طبع مؤلّف والدنا في العلم النبوي المسمى" **جلاء القلوب** من الأصداء الغيبية ببيان

إحاطته عليه السلام بالعلوم الكونية" حتى قال له مرة: " ان مكنتني من طبع تأليفك هذا أرسلت لك منه خمسمائة نسخة". ولكن التأليف المذكور كان إذاك لم يزل غير تام، فاعتذر له والدي بذلك. وهذا الرجل قيل لنا أن له من المؤلفات ما يزيد على المائتين، منها " **العطايا النبوية في الفتاوى الرضوية**" في اثني عشر مجلدا ضخما، رأيت مطبوعا منها مجلدين يرد فيه على الفرق المخالفة للإسلام أو السنة، وذلك كالقاديانية و(الوهابية)، ونحوها.

وقد اجتمعنا بتلميذ هذا العالم المؤلف، وهو الأستاذ الحكيم مولوي نور محمد. وأرانا هذا الرجل إجازة له من شيخه المذكور في العلوم وغيرها. وأرانا إجازة له أخرى في الطب من أحد شيوخه، غير أن هذا التلميذ المذكور قيل لنا أنه من المنهمكين في تعاطي الكيمياء، وأخبرنا أن له في تعاطيها خمس سنين، قل أن يمر عليه فيها يوم وليلة إلا وهو مشغول بذلك، وأنه صرف في هذا السبيل مائة و خمسين ألف روبية أتت من طريق غريب. وذلك أنه ظفر بأحد من متقني هذا الفن من المغاربة، فأعطاه ماء كان يقتل به " العبد"، وهو الزئبق في اصطلاح أهل هذا الشأن، ويدخل به في أعمال واحدها على ألف. فحصلت له من ذلك ثروة عظيمة، منها كان ينفق. ولما انقضى ما كان معه من الماء، طلب الرجل، فوجده قد مات بحيدر آباد، فنزل له الآن يسعى ليقتل" العبد" قتلا لا يقدر معه على الفرار إذا عرض على النار. وليس معنى قتله أنه يسبكه حتى يضرب بالمطرقة، فإنه وصل لهذا القدر، ولكن بعد ذلك فسادا" للعبد" فقط.

وقد فهمنا من هذا الشخص وغيره، سبب كراهية أهل الهند لعلماء ديوبند وتبديعهم لهم، وذلك أنهم ينسبونهم إلى اعتقادات قبيحة جدا كفروهم بها.وذلك كقولهم بجواز الكذب على الله، جل شأنه،

بل ووقوعه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب، وأن الشيطان أعلم منه، إلى غير ذلك من الهذيان. ومع ذلك فما أظن أن القوم يبلغ بهم الأمر لهذا التصريح الشنيع، إذ جالسناهم بالبلدة المذكورة قبل مدة من ثلاثة أيام، وذاكرناهم، ولم نر إلا الصلاح والفضل والعلم والنزاهة عن اللغو وما لا يليق. والغالب أن هذه الأكاذيب إنما هي من أعداء الإسلام ليلقوا بها الفتن والشر بين المسلمين، وليبغض الناس بها وبأمثالها العلماء. وليس هذا بغريب عن الاستعمار وأهله. والعلم عند الله سبحانه.

وقد اجتمعنا بدار رفيقنا الأستاذ الشيخ سلميان مرداد المكي، في مأدبة عملها لنا برجل من الوهابية من سكان بومبي، قيل لنا إن له معاشا من حيدر آباد، يحمل علامة الماسونية، ويعبث بلحيته على شكل الفرنج، ثم إن أحد الحاضرين ذكر الوهابية بشيء، فقام الرجل ينتصر لهم بحرارة ووقاحة، إلى أن قال إن الوهابية هم الفرقة الناجية، وهم المسلمون الخلص في هذا الوقت. فسكتنا نحن لأننا غرباء وزلة الغريب مضاعفة، سيما والمجادلة مع ساقط مثل هذا الشخص لا تجدي نفعا.فانتصب له شخصان من الحاضرين رفقائنا، وهما حاجي عبد الله كاظم، وأخوه الصالح حاجي أحمد. فقال له أحدهما:" وما نسبة أهل نجد كلهم من العالم الإسلامي، الذي ورد فيه أن الله تعالى يعتق كل يوم من رمضان ألف ألف عتيق من النار، فإذا كان آخر الشهر اعتق بقدر ما اعتق في الأول! يعني إذا كان هذا القدر لا يؤخد من أربعمائة مليون مسلم الموجودة اليوم على وجه الأرض فما يغني فيها خمسون أو ستون ألفا من النجديين الوهابيين ! ".

هذا من جهة العقل، رغما عن أحوالهم المنافية لأصول الدين وفروعه التي منها أنهم يكفرون العالم الإسلامي، وينسبون أهله للشرك

لأمور ظنية أوحاها لهم وهّابيّهم الأول، ويستبيحون دماء المسلمين وأموالهم. ومنها أن ما يدّعونه من المبالغة في التوحيد أداهم إلى هضم الجناب النبوي، كاعتقادهم أن النبي صلى الله عليه وسلم، بموته انقطع عمله، مع أن أعمال الأمة سابقها ولاحقها كلها في صحيفته، وهو المثاب عليها اصالة، لأن الدال على الخير كفاعله. وإنه لا يشفع به بعد ذلك، فأين استغفاره لأمته في قبره، ثم شفاعته العظمى عاما وخاصا في المحشر؟. وإن العصا خير منه، تعالى الله وأنبياؤه عما يقول الظالمون علوا كبيرا. إلى غير ذلك من هذيانهم وتعجرفاتهم التي حملهم عليها جهلهم بالمنصب النبوي وما أكرم الله به صاحبه مما يصغر عن فهمه وإدراكه الجهلة وحفاة الأعراب أمثالهم.

٦- زياراتنا في حيدر آباد:

وبعد ثمانية عشر ساعة من ركوبنا بالقطار الحديدي من بومبي وصلنا لحيدر آباد من الغد على الساعة الثامنة صباحا. فوجدنا الحكومة قد أوفدت لاستقبالنا جماعة، منهم الشيخ أحمد العبادي، العربي الأصل، الموظف بدار الضرب خانة بحيدر آباد، كان في المحل الذي تضرب فيه الحكومة الدراهم والدنانير، ومعهم جماعة من بوليس (شرطة) الحكومة. وبعد أن استكتب البوليس أسماءنا ، وتعرفوا بعناويننا وهويتنا، ركبنا في سيارة حكومة أتوا بها لأجلنا، وذهبنا بمعيتهم حتى أدخلونا لمحل نزولنا، وهو قصر أحد أمراء المكلا، وهو السلطان نواز جنك صالح ابن غالب القعيطي الواقع بهذا العنوان: شارع أربع منارات الواقع ببيت الحمام، ونقول بلسانهم" چار منار كبوتر خانة نمرة ٢٧٨٢".

وإنما انزلونا بهذا المحل دون المحلات المعدّة عندهم لنزول الضيوف والسواح، وهي كثيرة، وذلك زيادة في الإكرام والرفعة ،

لأن صاحب هذا القصر رجل أمير كبير، هو وحاشيته كلهم من العرب أهل اليمن، ولغتهم هي العربية، ونحن لا نعرف غيرها. ولما استقر بنا الحال بهذا القصر، جاء هذا السلطان حالا للسلام علينا، فإذا هو عربي عالم فاضل حيي، لطيف الشمائل. ثم سألنا عن عادتنا في الأكل، وكيف نريد أن يكون ، فقلنا لهم" نأكل ما تأكلون، غير أننا لا نأكل إلا مرتين في اليوم، إحداهما وقت الضحى، والأخرى بعد العصر!". فكانوا معنا هكذا بزيادة القهوة والحليب في الصباح. ثم بعده جاء لزيارتنا مضيفنا وزير الملك مهدي يارجنك، فتلطف ورحب وقال:" خصصنا لكم سيارة لإقلالكم وراحتكم، وإذا كانت غير كافية زدنا لكم أخرى!". فاستكثرنا خيرهم، ودعونا لهم بخير. وهكذا بقيت معنا هذه السيارة مدة إقامتنا بهذا البلد. ثم زرنا كثير من الأمراء والعلماء والأعيان، لا أقول الكل ولكن الجل.

وقد كنا نجلس بقصرنا لاستقبال الزائرين من الصباح إلى قرب العصر حيث الغداء، بعده نركب سيارتنا ونذهب يمينا وشمالا، كل يوم بضع كيلو مترات للتفسح واستنشاق الهواء والتلاهي عن الغربة وما ينشأ عنها. وكنا إذا خرجنا لا يكاد يمر بنا جندي أو نحوه إلا وحيانا التحية الرسمية، لأننا ضيوف الملك وفي سيارة حكومية خاصة. وكان طهاتنا والمستخدمون في قصرنا كلهم من العرب اليمنية، والطعام الذي يطبخونه لنا كله من أطبخة العرب. وقد ألزمت بنا الحكومة سيدا يمنيًا أديبًا، لا يفارقنا إلا وقت النوم، اسمه السيد حسن بن علي الأهدل، من آل الأهدل المعروفين باليمن بالشرف والفضل، منه الرفيق والمنادم والمترجم والواسطة بيننا وبين الحكومة. فكان الكل في الكل. وقد أكرمنا هذا السيد. وعنوان محله هو: همت بهورة ثمرة ٥٤٥٣ بحيدر آباد الدكن.

وقد أكرمنا بهذه البلدة جماعة منهم إمام الملك وخطيبه الشيخ إبراهيم الرشيد إمام الجامع الأعظم المسمى " مكة مسجد" غير مرة. لا زمنا جزاه الله خيرا، مدة إقامتنا بهذه البلدة ملازمة الظل الشاخص.

وممن أكرمنا الولي الصالح الشريف الحبيب علي بن زين العطاس،أدب مأدبة خاصة لنا ببستان البحيرة المسمى بلسانهم" بنكري بيت"، أَوْلَمَ لنا بها وليمة ملوكية، حضرها السلطان صالح وغيره. وعند سفرنا أهدانا عدة سجاجيد للصلاة، وما قصر. شكر الله مسعاه وجعل الجنة مأواه.

وممن أكرمنا بها المثري الكبير نواب مير يوسف علي خان بهادر مالار جنك. استدعانا لداره الأَثَرِيَّةِ الكبيرة، وأطلعنا على خزانة كتبه النفيسة، ودار آثاره قليلة المثيل، من ذلك عدة خوابي كبرى يرجع تاريخها لقبل خمسمائة سنة.

وممن أكرمنا مفتي السلطنة مولانا محمد بادشاه، معتمد مجلس العلماء وشيخ الطريقة القادرية. استدعانا لمحلّه في حفلة سنوية كبيرة. وممن زارنا بمحلنا مدير دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد العلامة مولانا السيد ظهور الحق. وممن أكرمنا نواب بهادر يارجنك بهادر الذي تعرفنا به بالشام، عمل لنا حفلة شاي، بداره حضرها السلطان صالح وجماعة من أكابر العلماء.

وممن أكرمنا الوزير الصدر الكبير، وهو رجل مسن جدا، مجوسي الملة، غير أنهم يقولون إنه يحب المسلمين، ويقضي حوائجهم ويحب القرآن ويطلب من بعض الداخلين عليه تلاوته له ، فيصير يبكي. هذا الرجل استدعانا للعشاء عنده، ولما ذهبنا عشية وجدنا

المحل خاصا بالزوار. ثم تبيّن أن تلك الحفلة كانت موسما سنوياً لصنم كبير لهم،رأيناهم آتين به على سلّم مربع ذي حرائر،والصنم الذهبي، ذو العينين الوقادتين، جالس بأعلاه. فقلت لأخي:" إن هذه جهنم بعينها، لأن هذا شرك حقيقي بالله!" ثم فكرنا في كيفية الخلاص عن حضور هذه الحفلة الإشراكية، فتخلّصنا منها باسم صلاة المغرب، ذهبنا حيث لم نرجع.

وممن أكرمنا أيضا ولازمنا مدة جلوسنا بذلك البلد الأستاذ العلامة رفيقنا السيد هاشم الندوي،رئيس دائرة التصحيح بمطبعة دائرة المعارف العثمانية،ذكره الله بخير. وقد لازمنا هذا السيد ملازمة كبيرة، وحصلت بيننا وبينه محبة شديدة، وأهديناه عددا من مؤلفات الوالد المطبوعة.وقد تعشقنا وتعشق بلادنا، حتى إنا تركناه عازماً على الوفود إلينا وزيارتنا بفاس. وقد أوصانا على عدة كتب منها الجزء الثالث من التاريخ الكبير للبخاري، والتاسع من السنن الكبرى للبيهقي، وكتاب الزهد لعبد الله بن المبارك، وفهرسة خزانة القرويين إن كانت، وفهرس ما أمكن من خزائن غيرها.

ومن المعاهد التي زرناها دار الضرب والمسكوكات الذهبية والفضية والنحاسية ورأينا كيف تذاب المعادن من الذهب ونحوه وكيف تسبك، وأرونا قبضة من الأوراق النقدية المضروبة هناك، وقد اشتملت على نصف مليون روبية، أتى بها رجل بيده. وأخبرنا كيف يراقبون العملة أثناء صب مسكوكات الذهب وكيف يدققون في التفتيش عليهم،وأن منهم من يبالغ في أساليب الغدر والسرقة، حتى أن

بعضهم يبتلع المسكوكات الذهبية ونحوها. وجميع هذه المسكوكات وطابعها وموظفوها، كلهم من السلطان وباسمه، من غير أن يكون للإنجليز في ذلك شيء.

وزرنا كذلك ضريح الولي الصالح بابا شرف الدين العراقي، من أكابر أولياء هذا البلد، قالوا إنه كان يتعبد بها قبل وصول الإسلام لها، وله عدة مؤلفات. وقد زرنا بهذه البلدة عدة معاهد علمية وغيرها. فمن ذلك زيارتنا للمكتبة الأصفية العثمانية التي يرأسها الأستاذ مولانا ظهور الحق، وتفرجنا على ما فيها من أفانين الكتب وأنواع المؤلفات. وهي مفتوحة للزوار والواردين ليلا ونهارا. وقد استكتبنا منها بعض الرسائل النادرة، وهو كتاب في استنباط المياه وكيفية استخراجها من الأرض والعلامات الدالة على وجود الماء تحت طبقات الثرى. وبحيدر آباد مكاتب أخرى لبعض المثريين، خاصة وعامة. وقد تركنا فكرة حيازة الحكومة للجميع وجمعها بمحل واحد تحت الدرس والمذاكرة.

وزرنا أيضا المستشفى الإنجليزي، والمستشفى السلطاني ودار الأيتام والمستشفى العربي، أي الذي أطباؤه وأدويته وعلاجاته على الطريقة التي أخذها العرب عن اليونان. ورأينا به مستودعات الأدوية المملوءة بالحشائش والنباتات. وأرونا محل تقطيرهم وتحليلهم واستخراجا تهم لذلك. وقد كانت كتابتهم على محلاته وقواريره وأسمائه وعناوينه، كل ذلك بحروف عربية بحتة. وهذا المستشفى يتولى إدارته وأشغاله أطباء متخصصون مسلمون هنديون، من طرف السلطان خاصة، على الطريقة العربية اليونانية. ولهم هناك خزانة كتب طبية كبيرة أطلعنا عليها. ومعتمدهم في هذا الطب على الكتب

الإسلامية المؤلفة في هذا الفن، ككتاب " **عمدة المحتاج في علمي الأدوية والعلاج**" أظنه في أربع مجلدات، مطبوع، وهو أحسن ما ألف في الطب، عصري عربي، للسيد أحمد الرشيدي، وكذلك "**القانون**" لابن سينا، مطبوع أيضا بمصر في أربع مجلدات، وكذلك "**موجز القانون**" وشرحه للسويدي، وشرح النفيسي عليه أيضا، وشرح الأسباب والعلامات، إلى غير ذلك من الكتب المؤلفة في هذا الشأن، فارسية وهندوسية وغيرها. وسألناهم عن التذكرة للشيخ داوود الأنطاكي، فقالوا: " هي معتمدة، ولكن الكتب السالفة أكثر نفعاً واختصاراً منها!".

ومن الأطباء هناك من جمع بين الطب الإنجليزي الأوربي والعربي اليوناني، كالعلامة طبيب مولوي أنيس أحمد الحيدر بادي، سلطان بورا حيدر آباد الدكن. فقد كان يتجول معنا بالمستشفى هو والمدير وجملة من كبار الموظفين كالعلامة الطبيب البركة سيد حيدر حسيني صاحب المدرس الرئيسي للطب اليوناني بحيدر آباد. ومن جملة ما أطلعونا عليه خزانة بداخلها صورة امرأة مجسمة واقفة، قابلة للتفكيك، كل جزء منها على حدة، تفصل وتتحد. فإن فصلت كان المنفصل كالجزء المقطوع، وإن وصلت صارت امرأة كاملة. فأرانا الرأس وما بداخله من الدماغ وكيفية تركيبه، وأرانا العين وطبقاتها وتراكيبها، والأنف وما بداخله، وكذلك الفم. ثم نزل إلى البطن، فأرانا كيفية استقرار الجنين فيه، والأمعاء والرئة والكبد والقلب والمثانة، فيفصل من الجثة كل شيء على حدته، فيرينا إياه، ويوضح لنا أسراره وأسماءه، وبعض ما أودع الله فيه، ثم يرده لمكانه فيلتئم ويصير جزءا لا يتجزأ. ولعمري أنها لصورة غريبة في بابها، ربما تعني مزيد تعلم هذا الفن عن تشريح الآدمي. وهذه الصورة من صنع

أوروبا. ثم أطلعونا على تفاصيل هذا المستشفى الذي لم يتم إلى الآن، وعلى غرفه الواسعة ومحلاته الكبيرة التي هي آية في الحسن نهاية في الإبداع والإتقان. وهذا المستشفى قريب من قصر نزولنا" سنار منار".

وقد استفهمناهم عن دواء مفرد ناجع لعرق النساء وبوزلوم أوقل الروماتيزم. فقالوا: " لا شيء أنفع لذلك مثل السورنجان!" وهو حب أبيض مثلث الشكل هكذا يدق ويسف منه مقدار درهم صبحا، ومثله في المساء. وكذلك استفدنا منهم أن داء السل، أعاذنا الله منه، دواؤه المفرد لبن الآتن، أي لبن أناث الحمير، السخن الطري. فضحكنا، وقلنا له:" شائع عندنا بفاس أن لبن الحمير يسد الحلق ويفسد الصوت!"فضحك وقال:" هذا لا أصل له!" وكذلك لبن القرد والبقر،ولكن لبن الآتن هذا أبلغ،وينبغي أن يكون شربه تدريجيا لقوته. ويلحق بهذا الباب السرطان، أي وهو المسمى عندنا " عقريشة" يحرق ويسف لمن به السل الرئوي، فإنه يضمد الجراحات الموجودة بالرئة.

ومن فوائدهم وَصْفَةٌ منسوبة إلى يحيى بن خالد، وهي مفيدة في أمراض أوجاع المفاصل وعرق النسا غاية ، وقد جربت مرارا. وصفتها: سورنجان حلو دراهم ١٤، سنامكي ٧ ، زنجبيل، كمون ، دار فلفل، أسارون، يدق الجميع ناعما ويغربل حتى يصير كالرماد، ويستعمل منه درهمان في كل صباح يساغ بقليل من الماء الفاتر.

ومن ذلك " معجون الفلاسفة" يدعى بمادة الحياة، هاضم مورث للشهية، ودافع للبلغم، ومفيد لسلس البول والنسيان ووجع الظهر والخصر ووجع الكلا وأوجاع المفاصل، ويزيد المني، ويهيج الإنهاض، ويشد الأسنان، ويقوي القلب، ويصفي الوزن ، ويطيب النكهة. وهو موافق للشيوخ والكهول. وصفته زنجبيل دراهم ١٥،

فلفل أسود ١٥، دار صيني ١٥، أملج يؤخذ قشرة دون بـــذرة ١٥، بليلج قشره دون بذرة ١٥، شيطرح هنـــدي ١٥، دار فلفـــل ١٥، زاروند مدحرج ٥، خصية الثعلب ١٥، لب حب الصنوبر ١٥، أصل البابونج ١٥، نارجيل، وهو الجوز الهندي، لبه ١٥، بزر البابونج ١٥، الزبيب المنقى ١٣٠ عسل مصفى ثلاثة أضعاف هذه الأجـــزاء. وإذا فقد البابونج يعوض عنه درونج عقربي على نصف وزنه، وقدر شربته درهمان في المساء، هذا ما أفاده الطبيب مولوي أنيس أحمـــد الحيـــدر آبادي السالف الذكر.

ومن فوائدهم أن مرض السكر اسمه باليوناني هكذا"ذيابيطيس" يراجع في أمراض الكلا. انظر **قانون ابن سينا وتذكرة الأنطاكي**.

٧- حفلة دائرة المعارف الإسلامية بحيدر آباد:

وممن أكرمنا الوزير المقدم نواب مهدي يـــارجنك الســـالف الذكر، عمل لنا حفلة شاي بدائرة المعارف الإسلامية، وصارت علـى المائدة خطب ترحيبية، وأخرى وعظية. وقد حضر هذه المائدة عـــدد عديد من علماء البلد وأعيانها، وجم غفير من مراسلي الجرائد علـــى اختلافها. ومن الغد نشروا ذلك الاجتماع وما وقع فيه من المحاضرات والخطب، مع اسمنا وتراجمنا وأحوالنا ، بلغات ولهج مختلفة.

وسبب هذا الجمع أن الوزير المذكور كان قد طلب مني ومـــن الأخ مولاي المكي استعمال محاضرات بمحل عمومي يعينه، ثم اقتضت السياسة أن لا يكون سوى الاجتماع الخصوصي بدائـــرة المعـــارف المذكورة. والمحاضرتان المستعملتان مني ومن الأخ سيدي المكي كانتـا مختصرتين، إحداهما مني وكانت في وجوب تعلم لغة القرآن، اللغـــة العربية، على جميع المسلمين، عربهم وعجمهم، لأن القرآن الذي هـــو كتاب الله والواسطة بيننا وبينه تعالى باللسان العربي، ولا يمكـــن أن يفهم ويؤتمر بأوامره وينتهى عن نواهيه إلا بمعرفة اللغة العربية. وقـــد بدا لي ذكر محاضرتي، وهي: " اللغة العربية ووجوب تعلمـــها علـــى كافة المسلمين".

" بسم الله الرحمن الرحيم، الله أحمد، وبرسالة نبيه ورسوله سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم أعترف وأشهد. أما بعد فيا أمة المسلمين، ويا خير أمة أخرجت للعالمين، قال الله تعالى في كتابه العزيز خطابا لنبيّه محمد، صلى الله عليه وسلم: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُوْنَ حَتَّى يُحَكِّمُوْكَ فِيْمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوْا فِيْ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوْا تَسْلِيمًا ﴾

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُوْلُ فَخُذُوْهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوْا ﴾ ، وقال: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ! ﴾ . وقرئ في الشواذ" وهو أب لهم"، أفادت الآية الشريفة الأولى أن مولانا العظيم، جل شأنه، أقسم بذاته العلية وصفاته السنية أن المؤمنين لا يتم إيمانهم ولا يكمل إسلامهم ويقينهم حتى يذعنوا لأحكام شريعته المطهرة تمام الإذعان، فيستسلموا لأوامره وأحكامه تمام الاستسلام، ظاهراً وباطناً،منشطاً ومكرهاً،في الرضى والغضب، وفي جميع الأحوال الشخصية وغيرها، في الأمور الدنيوية والأخروية، بحيث إذا حكمت الشريعة المحمدية على شخص بشيء له أو عليه، فإنه ينفذه بتمام السرور والإحسان، وكمال المطاوعة والإذعان، مع اعتقاد أن العدل والحق والصواب محصور فيما جاء به عليه السلام من الشريعة والأوامر والنواهي. فإذا اتصف الإنسان بهذه الحالة فإنه عند ذلك يسمى مسلما كامل الإسلام والإيمان وإلا فلا.

" والآية الثانية: أفادت وجوب الأخذ بأوامره عليه الصلاة والسلام مطلقا والكف عن نواهيه كذلك في جميع الحركات والسكنات، ما وافق من ذلك الطبع والهوىٰ ومالا. والآية الثالثة: أفادت أن سيدنا محمدا رسول الله-صلى الله عليه وسلم- هو أولى من أنفسنا وآبائنا وأمهاتنا، بل هو الأب الحقيقي، وأزواجه أمهاتنا

الحقيقيات، وهو جنسنا ووطننا وعصبيتنا، ودينه ولسانه وكتابه وجميع ما أتي به من عند الله هو دستورنا وقانوننا ومعولنا ومحل نظرنا، وننبذ جميع ما يخالف ذلك من الدساتير والقوانين والجنسيات والعصبيات، كائنا من كان،سواء ما يخالف هوانا أو ما يوافقه وقال تعالى:﴿ **وَلَوْ كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾(سورة النساء: الآية:٨٢).

" وإذا علمت ذلك أيها المسلم الغيور، وليس كلامنا إلا مع أهل الإخلاص والصدق والإيمان أمثالك، لا مع من يدعي الإسلام، لسانا فقط، فلتعلم أن تعلم لغة القرآن والسنة النبوية فرض عين واجب على كل مسلم، مع الإمكان والقدرة من كل جنس كان، وبأي إقليم وجد، سواء في ذلك العربي والتركي والفارسي والبربري والرومي والقبطي والهندي، وجميع من تشمله بعثة النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. لأن أجناس الخلق وإن تباينت وأشكال البرية وإن تباعدت وتفاوتت مشربا وجنسا وإقليما، فالكل في نظر الله ونظر الشريعة الإسلامية سواء، قال الله تعالى مخاطبا الكل:﴿ **يآ أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبآئل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (سورة الحجرات: الآية: ١٣)، "لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى والإيمان"، وهكذا يجب على الأب الحنون الرحيم أن ينظر إلى أولاده بنظر العدل والسوية، ولا يفضل بينهم إلا بجميل أخلاقهم ومزيد تقواهم.وهكذا سيدنا محمد صلى الله

عليه وسلم، لما كان نبي الكل ورسول آخر الزمان كما في الخبر عنه أنه أرسل إلى الأحمر والأسود والأبيض،وشاهده قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيْرًا وَنَذِيْرًا ﴾(سورة سبأ:الآية: ٢٨). وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِيْ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْرًا﴾(سورة الفرقان: الآية:١)، ومعلوم في العربية هو كل ما سوى الله سبحانه".

" ولما كان عليه السلام عربياً هاشمياً قريشياً، ولسانه الشريف كذلك، وكان عليه السلام أفضل العالمين وصفوة الله من خلقه أجمعين، لزم أن تكون لغته الشريفة كذلك هي أفضل لغات العالم، بل هي كما سيأتي لغة أهل الجنة،ولولا ذلك لما اختاره الله لعبده وخليفته في الأرض سيدنا محمد-صلى الله عليه وسلم- وارتضاها لغة له ولقومه العرب الذين يربو عددهم اليوم على ما يقال مائة مليون نفس تقريبا. كلهم يتخاطبون بها على اختلاف لهجهم وتفاوت أقطارهم. ومن شرفها أن الله أنزل بها القرآن الذي نسخ جميع الكتب السماوية المنزلة قبل، وأقامه في الأرض دستورا وحكماً وعدلاً، من تمسك به نجا وعدل ومن حاد عنه هلك وضل. وما سبب سقوط الأمة الإسلامية من ذلك المجد الشامخ والشرف الباذخ إلى هذا الحضيض الأسفل إلا بإعراضها عن العمل بهذا الكتاب المجيد، الذي ﴿ لاَ يَأْتِيْهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ﴾. إذاً فالقرآن والسنة النبوية هما أصل الإسلام ومادته وعنصره ولبابه وفائدته، بإجماع الطوائف الإسلامية والمذاهب المحمدية.أما القرآن فلأنه نزل من عند الله بلسان عربي مبين. وأما السنة المحمدية فلأنها هي المبينة للقرآن والمفسرة لمعاني ما أجمل منه، قال تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ! ﴾ . ولو كان لا يمكن فهمهما ولا معرفة شيء

منهما إلا بتعلم لغتهما العربية، لكان معرفتها أمرا واجبا في الديـــن، وحتما مقضيا على كافة المسلمين، من باب ما لا يتم الواجب إلا بـــه فهو واجب، فإن فعلوا فقد امتثلوا أمر الله، وفازوا بســـعادة الدنيـــا والأخرى، وإلا فهم مسؤولون عن ذلك أمام الله تعالى. ولا شـــك أن مجدهم في الدنيا وقدرهم عند العالمين يسقط بقدر تساقطهم في لغتـــهم الدينية ولهجتهم الإسلامية، والمشاهدة أقوى دليل".

والعجب أننا نرى اليهود الذين هم أرذل الأمم وأســـقطها، رغما عن كونهم متشتتين في العالم، ومن أجناس مختلفة ولغات غـــير مؤتلفة قد نبذوا بأطراف المعمور، وقد مضى علـــى تاريخـــهم آلاف السنين، ومع ذلك نراهم يتقنون لغتهم الدينية العبرية إتقانا كليـــا، لا يشابههم فيه غيرهم. فلما طمعوا بالوطن القومي والدولة الموهومـــة، وأتى بهم سماسرة الاستعمار لفلسطين، وانهالوا عليه انهيال الجياع على قصع الطعام من كل صوب وحدب، نراهم على اختلاف ألســـنتهم وتباين دولهم وأقاليمهم يتفاهمون بلغة دينهم العبرية، حـــتى صـــاروا بسببها كأنهم أبناء عائلة واحدة وأسرة طينية متحدة".

" والمسلمون، ويا للأسف، قد فرطوا في كل شيء وضيعـــوا كل مزية وأعرضوا عن كل خير، حتى لغتهم الدينية القرآنية نســـوها وفرطوا فيها، حتى بلغ بهم إذا اجتمعت الجماعة منهم مـــن أقطـــار مختلفة، كالأفريقي والتركي والهندي، والفارسي، لا يمكنهم التفـــاهم أصلا إلا بواسطة لغة أجنبية رومية، لا تربطهم بها رابطة، اللـــهم إلا الطمع والتزلف والخوف".

" وقد صرح بما قلناه، وجزم بما أبدينـــاه علمـــاء المذاهـــب الأربعة، بل ما أظن أن مسلما يمكنه أن يختلف فيه، أو يعرج على غير

هذا ويقتضيه،وذلك من وجوب تعلم اللغة العربية وجوبا إجباريا بحتا. كما أن أهل المذاهب نصوا أيضا على من لا مأمن على نفسه من اللحن، ولذلك لجهله بقواعد اللغة العربية، أنه لا يجوز له تلاوة القرآن ولا قراءة الحديث النبوي إلا بعد تعلمه ما يمنع به نفسه من اللحن والتخليط فيهما، وذلك بتعلم اللغة العربية. كما أنهم نصوا على أن صلاة اللحان(أي في الفاتحة) إذا كان لحناً جليًا لا تصح، على تفصيل في ذلك عند المذاهب. وأيضا في الحديث الشريف عنه عليه السلام أن دعاء اللحان غير مقبول عند الله، بل هو مردود. وورد عنه عليه السلام الأمر بتعلم اللغة العربية في غير ما قصة وحديث والحث على إصلاح اللسان فيها، وكذلك ورد في غير ما واحد من الصحابة والتابعين وصدور الأمة أجمعين مما هو غير خاف على من له أدنى مسكة من الاطلاع على كتب الدين وأقوال سلف الأمة أجمعين. وليت شعري كيف يمكن لمن لا يعرف العربية أن يفهم شيئا من إعجازات القرآن وفصاحته المطربة وبلاغاته ومجازاته المعجبة، وما فيه من العلوم والمعارف والأسرار وشتى الفنون، إلى غير ذلك".

" فكيف يمكنكم أيها المسلمون، بعد معرفة ما سبق، أن تتساهلوا في تعليم اللغة العربية ولا تجعلوها بعد العقائد الإيمانية والفروض الدينية، أهم شيء لديكم وآكد أمر متحتم بينكم لتبقى وحدتكم ورابطتكم محكمة الاتصال، ودينكم وقوامكم في أمن من الزوال، وكيف تفرطون معاشر المسلمين في هذا الفرض الحيوي الديني، وتتساهلون فيه، مع توفر العلماء ووجود الأمراء والفضلاء؟ فبادروا يا أمة محمد، عليه السلام ، لتدارك هذا الأمر قبل الفوات فإنه إن يكن لشيوخكم وذوي الاسنان فيكم بعض العذر لصعوبة التعلم بعد الكبر، فإنه لا عذر لكم عند الله في تواطيكم على إهمال لغتكم القرآنية لدى الأطفال والشباب، مع انهماككم على تعلم لغات الأجانب ممن لا ارتباط لكم به سوى الطمع والحرص على الدنيا وما

يرجع إليها عنكم إلا ضعف الدين، وانحطاط الغير واليقين، مما أدى إلى ضعفكم، وزوال دولتكم، واستيلاء الأغيار عليكم، بل اندماجكم أخيراً في جنسية غير جنسيتكم وملة غير ملتكم، إلى غير ذلك".

" ومما يؤسف له، ويدل دلالة صريحة على انحطاط عقول بعض المسلمين، وزوال الغيرة عنهم والإيمان من قلوبهم، أنه يوجد منهم كثيرا، حتى في بعض الأقطار العربية، فضلا عن غيرها، من يؤثر تعلّم بعض لغات الأجانب من الفرنجة حتى على لغته ولغة قومه وأسلافه. فترى الواحد منهم يتقن عدةً ممّا يسمونه " اللغات الحية" مع جهله بلغته جهلا تاما. ﴿**فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوْبُ الَّتِيْ فِي الصُّدُوْرِ**﴾.ولئن سلمنا أن في تعلم تلك اللغات الحية بعض فوائد مادية وتجارية أو فنية،فلا نسلم بحال من الأحوال ترك اللغة العربية للمسلمين وهجرانهم بالكلية لها، إذ بها يحفظ دينهم، ويعلو بين الأقران قدرهم. وبالمحافظة عليها تحفظ سعادتهم الأبدية، إن شاء الله".

" فلينتبه لهذا المسلمون، وبالأخص من نحن الآن بين ظهرانيهم إخواننا الهنود ومن كان على شاكلتهم، وبالأخص الملوك والسلاطين والأمراء والجمعيات التعاونية الإسلامية، ولاسيما فخر الإسلام ونائب النبي عليه السلام في هذا القطر، السلطان مير عثمان خان، خلد الله ملكه إلى آخر الزمان، فإن له في محبةِ العربِ ومؤازرةِ الدينِ واللغةِ العربيةِ ما يكتب له بأقلام ذهبية على صفحات قلوب العالم الإسلامي، رفع الله قدره ونشر على العالم الهندي لواءه وفخره، آمين. والله المسؤول أن يلهم المسلمين رشدهم ويوفقهم لما فيه مجدهم وصلاحيتهم بمنّه".

" روى الحاكم في " **المستدرك**: عن ابن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من استطاع منكم أن يتكلم بالعربية فلا يتكلمنّ بالفارسية، فإنه يورث النفاق!". قلتُ: ولا مفهوم للفارسية، ولكن الكلام خرج إذ ذاك مخرج الغالب والمقصود كل ما خالف اللغة العربية. لأن المقصود كما تقدم اقتصار المسلمين على لغة القرآن ما وجدوا لذلك سبيلا، والله أعلم. وكما يجب امتثال أمر النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته في كل منشط ومكره، وبذل النفوس والمهج والأموال والأولاد دونه صلى الله عليه وسلم، بل دون محبته وشريعته وقرآنه ودينه، وذلك قليل في حقه لما له علينا من الحقوق. كذلك تجب محبة لغته وقومه وعشيرته، وهم قريش وعامة العرب، وكذلك يجب محبة آل البيت وأقاربه وكل من له انتساب لعليٍّ جنَابِه. قال صلى الله عليه وسلم:" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله والناس أجمعين!". أخرجه أحمد والبخاري ومسلم. وروى أبو يعلى في سنده، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا ذلت العرب ذل الإسلام!". روى الطبراني في "**الكبير**" والحاكم في " **المستدرك**" عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي!". وروى الحاكم في " **المستدرك**" عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" حب العرب إيمان وبغضهم نفاق!".وروى الطبراني في " **الأوسط**" عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" حب قريش إيمان وبغضهم كفر! من أحب العرب فقد أحبني، ومن

أبغض العرب فقد أبغضني!". وفي مسند أبي يعلى عن سلمة بن الأكوع:" النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأمتي !".

" ومن الأمراض التي فشت في المسلمين حتى فتكت فيهم الفتك المبين، إعراضهم عما كان عليه آباؤهم وأسلافهم من الاهتداء بالتعاليم المحمدية، والتخلق بالأخلاق النبوية الإسلامية، وبغضهم لها، وإعراضهم تمام الإعراض عنها وتمسكهم بقوانين كسرى وقيصر، وتشبههم بهم حتى في أحوالهم الشخصية. وعاداتهم الذاتية القومية، في اللباس والطعام والشراب والهيئة والكلام، بل حتى في الحركات والسكنات والجلوس والقيام، وابتدالهم لذلك بالأخلاق الرومية والثقافية الأوروبية النصرانية. لاعتقادهم حقارة أنفسهم، واستعظامهم للأمم الأخرى غيرهم، جريا منهم على الطبيعة المقررة والسيرة المكررة من أن الضعيف دائما يقلد القوي تقليدا أعمى، مع أننا يا معشر المسلمين، أغنياء بديننا، أغنياء بقرآننا وأخلاق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما خصه الله به من الكمالات النفسانية والمزايا العلية والأخلاق العظيمة والنعوت الجسيمة الفخيمة. وكفى شاهدا على ذلك قول الرب العظيم:﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾. وقوله عليه الصلاة والسلام: " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وقوله:" أدبني ربي فأحسن تأديبي!".

" ولعمر الحق، أين أخلاق العرب والمسلمين من أخلاق غيرهم من الفرنجة والملحدين؟ وأين الثرى من الثريا؟ ولكن يغمى

على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن. أين كف الأذى واحتماله؟ والجود والكرم والإيثار والصبر والشجاعة وإكرام الضيف وسلامة الباطن والحمية والغيرة وإيامة الضيم والحلم والتواضع والعفة والبشر والتحبب إلى الناس وحسن الصنيعة لهم، إلى غير ذلك من أخلاق الكمال، مما لو بقي المسلمون متمسكون به كما كانت أسلافهم، لما غلبهم غالبٌ ولا توصل إليهم طالبٌ، فأين هذا من أخلاق الأوروبيين وثقافة الماديين: مداهنةٌ وختلٌ ونفاقٌ وتخنثٌ ولؤمٌ وإفراطٌ بخلٌ وقساوةٌ وغلظةٌ وعدمُ غيرةٍ وإباحةٌ وخلاعةٌ وإيثارٌ للنفس ورياءٌ وسمعةٌ ومباهاتٌ والتظاهرُ بخلافِ ما في الباطن، وغدرٌ وخديعةٌ وهوًى واحتقارٌ للمخلوقات، إلى غير ذلك من أمور، ربما كان في بعض ظاهرها عمار مستلفت للنفوس والأبصار وباطنها خراب شبيه بالسراب﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾.

" على وجه مَيًّا مسحة من ملاحة

وتحت الثياب العار لو كان باديا"

" فيا أمة الرسول الأعظم، والمنقذ الهمام الأفخم، إن الذي تطلبونه من السعادة والإصلاح والرقي في الشريعة المحمدية وأهلها، لا تجدونه عند غيرها،فلا يستفزّنكم الشيطان، إنه لكم عدوّ مبين، ولا تكونوا كالذين قالوا: "سمعنا" وهم لا يسمعون،فلتتمسكوا بيد من حديد على دينكم وقرآنكم وعربيتكم وأخلاق نبيكم وصفاته، عسى الله أن يرفع عنا جميعاً بسبب ذلك ما ابتلانا به من تسليط الأعداء وإفسادهم واستبعادهم وعتوّهم،ويمدّنا بالنصر والتأييد والمعونة، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إذا أبغض المسلمون علماءهم وأظهروا عمارة أسواقهم وتألبوا على جمع الدراهم والدنانير ابتلاهم الله بأربع خصال:بالقحط من الزمان،والجور من السلطان،والخيانة من

ولاة الأحكام، والصولة من العدو!". وفي " **الترغيب والترهيب**" روى الطبراني في " **الكبير**" بإسناد جيّد عن ابن شريح الغفاري قال: " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:" أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟" قالوا": " بلى"، قال: "إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً!". وفقنا الله وإياكم لا تباع سبل المهتدين، وأجارنا والمسلمين من سلوك طريق الضالين الملحدين، آمين".

" قاله وكتبه عبد ربه تعالى محمد الزمزمي بن الشيخ محمد بن جعفر الحسني الإدريسي، الشهير بالكتاني، المغربي، نزيل المدينة المنورة، ثم الشام، وضيف حكومة حيدرآباد وقته في أواخر الحجة عام ١٣٥٣هـ".

أما محاضرة الأخ مولاي المكي فكانت في وجوب اتحاد المسلمين وتضامنهم. وذلك لأنه رأى كثرة ما في الهند من الملل والنحل والمذاهب والفرق التي لا تكاد تحصى، مما أوجب انفكاك عرى المسلمين وتشتت كلمتهم، وانهيار وحدتهم.

ومضمن مقالته أن المسلمين اليوم وقبله، مجمعون على التمسك بأصول الإسلام الأولية بدون أن ينازع فيها منهم أحد. أولها كلمة التوحيد، ثانيها القرآن الكريم، وثالثها السنة المتواترة، ورابعها الدفاع عن الحرمين الشريفين. وغير خاف على أحد أن هذه الأشياء الأربعة كلها أصبحت مهددة، وأصبح أعداء الإسلام طامعين في الظفر بها، والحيلولة بين المسلمين وبينها. وإذا ثبت ذلك وصار واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار، فإنه يجب بالكتاب والسنّة والإجماع،على جميع من ينتسب للإسلام،أن يترك الأحقاد والعداوات والمذاهب والنحل، ويضع يده بيد أخيه المسلم للدفاع عن أصول

الإسلام الأولية،وعقائده الأصلية حتى لا يضمحل،لا سمح الله، الجميع ويصبح عموم المسلمين في قبضة الكافرين. لا قدر الله ذلك.

وقد كتبت الجرائد على اختلافها عنا. هذا مما كان سببا في الحيلولة بيننا وبين السلطان، حسبما سيذكر إن شاء الله. ولو كنا نعرف الإنجليزية والهندوسية لأثبتنا هنا ما كتبت الجرائد عنا وقته هناك، مما أوقع الإنجليز في ريب منا. فتارة يقولون إننا من طرف الخلافة الإسلامية، وأخرى يقولون إننا مبشرون بالجامعة الدينية، إلى غير ذلك من تقولاتهم. على أننا ما استعملنا تلك المحاضرتين إلا بطلب ورضى الوزيرين السابقي الذكر.

وبعد الفراغ من هذه الحفلة والمحاضرة، أهدونا من مطبوعاتهم عدة مؤلفات حديثة وغيرها. هذه أسماؤها: **كتاب المستدرك** للحاكم مع التلخيص أجزاء ٤، **تهذيب التهذيب** ١٢، **تذكرة الحفاظ مفتاح السعادة** ٢، **جامع مسند** الإمام الأعظم، ٢، **فتح المتعال في مدح النحال، كتاب الروح** ١، **الخصائص الكبرى** للسيوطي ٢ **الكنى والأسماء**، للدولابي ٢، **مسند أبي داوود، الخصائص** للزمخشري، **دلائل النبوة** ١، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**٢، الأمم **لإيقاظ الهمم مجموعة إثبات، لسان الميزان** ٦، **تعجيل المنفعة** ١، **المغرب في مشكل الآثار** ٢، **شرح السير الكبرى** ٤، **مرآت الجنان في السير والتصوف** ٤، **دول الإسلام، المباحث المشرقية، الجمع بين رجال الصحيحين** ٢، **الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الأخبار** ١، **الرسائل التسع، والمعتصر من مشكل الآثار** ١ ،**كتاب الجمهرة لابن دريد** ٤، **الدرر الكامنة** ٤، **كتاب التيجان في التاريخ ن دستور العلماء** ٤، **منحة السراء، مناقب** أبي حنيفة ١، **فتح المتعال** ١،

كتاب في الطب ١، وهكذا انتهت الحفلة، وذهبنا لمحلنا على العادة ننتظر إذن الملك بمقابلتنا.

٨- الملك في حيدر آباد:

وعاصمة الملك هذه هي حيدر آباد، وهي عاصمة إحدى الولايات المستقلة الهندية وتسمى كذلك بمملكة النظام. بنيت العاصمة في أواخر القرن العاشر الهجري. وملكها مستقل استقلالا إداريا ، مع زيادة رعاية في ذلك. وعدد سكان البلد يربو على مائة ألف، أكثرهم مسلمون. وهي واقعة على نهر ميسي على بعد ٣٠٠ ميل من مدراس. وهي أيضا بلدة طريفة الشكل، مزدحمة بالسكان، أكثر أبنيتها طبقة واحدة، بها عدة جوامع ومدارس وأبنية عمومية، محاطة بجملة جنائن جميلة وعدة منتزهات مخضرة، وبجوارها عدة صهاريج كنا كثيرا ما نخرج في العشي لبعضها. وأهم أنهار هذه المملكة نهر غدا فيري الذي يجري وسط البلاد، وتربتها في غاية الجودة والخصوبة، غير أن حراثتها غير متقنة.

وقد بلغنا أن بحيدر آباد، ونواحي مملكتها، عدة معادن ثمينة وجواهر وكنوز لا تحصى، قضت معاهدة الحماية والاستعمار الإنجليزي مع ملكها أنه - أي الملك - لا يمسها ويكون بمعزل عنها. حتى أن أحدهم أتى بقطعة من الذهب الخالص، جاهزة من بعض تلك النواحي، فأمر الملك بردها وسترها. هكذا بلغنا. ولله في خلقه شؤون.

وملك هذه المملكة النظامية، أو الدولة العثمانية الأصفية، اسمه بدون ألقاب" نواب مير عثمان علي" . وهو رجل غني للغاية، حتى قيل أنه أغنى رجل بالعالم، ذو خزائن قارونية وأموال فرعونية، وهو

رجل مسلم، سنيّ العقيدة، حنفي المذهب، إلا أنه يظاهر الشيعة على بدعهم وعوائدهم لأن أمه منهم. وهو موصوف بحب العرب حتى أنه اتخذ جيشا خاصا به، يؤلف من نحو خمسة عشر ألفا منهم. وهو يحسن كثيرا لأهل الحرمين حتى إنه يقال أنه نفذ لهم شهريا ما يزيد على الثلاثمائة ألف من الروبيات، وله مع ذلك منح وخيرات للحرمين وغيرها. وهو يحب المسلمين ويتودد إليهم، وتصاهر مع السلطان عبد الحميد العثماني المخلوع من طرف الكماليين وجعل له راتبا شهريا قدره ٣٠٠ جنية ذهبا، وزوج ابنته من ولده الأكبر وولي عهده. ولما ولدت معه بكرها الأول أهداه مالا عريضا يقال إنّه ثلاثمائة مليون من الروبيات ان صح ذلك. نقول ذلك إقراراً بالحق رغما عن كونه لم يعتن بنا الاعتناء اللائق، بقوم أعيان من آل بيت الرسول وفدوا عليه من بلاد بعيدة،وقبل فينا كلام الوشاة من المحتلّين الأخباث.ولو أن الله ألهمه لخدمتنا وقضاء مآربنا لما نسيها له الله ورسوله، لا في الحال ولا في المآل في الدنيا وفي الآخرة.لكنه استغنى عنا فأغنانا الله ورسوله عنه، وابتلاه بابتزاز الإنجليز لأمواله ابتزازاً مزرياً بأسماء وحيل وشيكات. وهذه عادة من لم يخدم الأبرار ابتلى بخدمة الأشرار، ومن توانى في خدمة الخصوص ابتلى بخدمة اللصوص، وهم غضوا النظر عنا إرضاء للإنجليز، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين.

ولما كان يوم الجمعة ركبنا سيارتنا وذهبنا للصلاة بالمسجد الكبير الجامع المسمى بلسانهم: "مكة مسجد" القريب من محلنا، وهو أكبر جامع بهذا البلد. وقد وجدناه غاية في العلو والعظمة والإتقان. إمامه رفيقنا وخادمنا ومحبنا الصالح البركة العلامة الجواد المضياف

المسلم الغيور، ذو العمامة الخضراء الكبيرة، الشيخ إبراهيم الرشـــيد، سبقت له مجاورة بمكة المكرم، وربما ولد به ، ولأسلافه يد في قتـــال الإنجليز. ولما خطب على منبر الجامع الرخامي الخالص بعـــد صـــلاة الجمعة والراتبة، قام خطيبا في القـــوم باللســـان الهندســـتاني فقـــال للحاضرين:" أتعرفون من هؤلاء السادات؟". وأشار إلينا. " " هـــؤلاء من أشراف المغرب وأعيان علمائه وساداته!"، وجعل يمدح فينـــا وفي بيتنا الكتاني ووالدنا، ثم قال لهم:" إن هؤلاء ليسوا ممن تعرفون مـــن الواردين عليكم آناء الليل وأطراف النهار، ولكن هؤلاء مـــن قـــد سمعتم، والآن يجب عليكم المبالغة في إكرامهم والترحيب بهم والســـلام عليهم!" ثم نزل المنبر وأخذ ومن معه بأيدينا وأجلسونا على حافة المنبر وجعل الناس يتواردون لتقبيل أيدينا ويتزاحمون على التمسح بأطرافنـــا وأذيال ثيابنا إلى أن لم يبق بالمسجد أحد. ولما أردنا الانصراف مـــن المسجد الجامع، أشار علينا بالميل إلى ناحية أضرحة السلاطين أجـــداد الملك الحالي، الذين هم بفناء الجامع، لنزورهم ونقرأ لهم الفاتحة. ففعلنـــا، ووصلنا أضرحتهم وترحمنا عليهم، ودعونا الله بحفظ هـــذه الدولـــة الأصفية وإبقائها وإنقاذها من براثين الإنجليزي الملاعين.

ولما رجعنا لبيتنا زارنا الإمام المذكور الشيخ إبراهيم الرشـــيد، ضاعف الله لنا وله الأجور. وقد جعل الله هذا الرجل بهـــذه البلـــدة ملجأ للغرباء ومأوى للواردين من أبناء الســـبيل إســـكانا وإطعامـــا ونصحا وخدمة واجتهادا في إيصال الخير والنفع وإدخال الســـرور، بحيث ينفق في هذا السبيل جميع دخله ، ثم يأكل مع ضيوفه كواحـــد منهم.

ولما وصل يوم عيد الأضحى، وكان يوم السبت استعد النـــاس للخروج إلى المصلى لصلاة العيد، وهي عندهم كما هـــي في الســـنّة

يوقعونها خارج البلد بالصحراء، دون سائر الممالك الإسلامية حتى الحرمين الشريفين، فكلهم يصلونها بالمساجد بالبلد، ما عدى بلاد المغرب وهذه البلاد. وقد بنوا لها ثمة مسجدا بدون سقف وغطوا داخل المسجد ونواحي المحراب والمنبر بثياب غليظة من القلعي، وقاية لمن يصلي هناك من الخطيب والملك وحاشيته من وهج الشمس.

ولما وصل الوقت ركبنا في سيارتنا، نحن والرفقاء، وقصدنا محل المصلى البعيد عن البلد بمسافة. وقد رأينا البواليس والشرطة بطريقنا واقفين على منافذ الشوارع والطرق التي ستمر منها سيارة الملك للصلاة، يمنعون الناس من المرور بها، ويصيحون عليهم بصفارات في أفواههم ليخلّيها الناس إلى أن يجوز منها المِلك. وهكذا بقيت خالية على اتساعها، بدون أن تمر منها دابة ولا سيارة إلى أن وصلتها سيارة المِلك بمن معه من الحواشي بمراتبها. فهناك أبيحت للمارة. ولما دخلنا هذا المصلى وجدناه غاصا بالناس، وأدخلونا إلى الناحية التي يصلي بها المِلك، فأجلسونا قربه مع العلماء. ولما أتى الملك قام له الكل،لكنه أتى بحالة تواضع وبلباس عادي وجلس على سجادة المصلّى العادية، ثانيا ركبتيه، وعلى يمينه حملة القرآن، وعلى يساره المفتي والعلماء. ولما استقر به المجلس، مدّ بصره فرآنا إذ لم يكن بيننا وبينه كبير بعد،فأرسل حاجبه الخاص يسأل عن هويتنا،فتسمينا له.

ولما صليت صلاة العيد، وكان الإمام والخطيب صديقنا الأفضل البركة الأستاذ الشيخ إبراهيم الرشيد المكي، خطيب المِلك وإمامه الخاص، خطب خطبة حسنة سنية، ولما أتمها افتتح أحد الأساتذة آية من القرآن، فأنصت الملك ومن معه لها بأدب وتدبّر. ولما ختم القارئ اشرأبّ الملك للخروج، ولكن افتتح التلاوة آخر، فاضطر الملك ومن معه للرجوع والإنصات بتأدّب كالأول إلى أن ختم.

وعنده تفرق الجمع، وذهب الملك، وعملت الأنفاض والمدافع عملها المعتادَ في مثل هذه المواسم والأعياد. ثم امتطينا متن سيارتنا راجعين لمقرنا. فجاء للتعييد علينا جمع من الأصحاب. ولم نر لهم اعتناء بالضحية، بل لم نر لها أثرا البتة.

ومن الصدف أننا صادفنا القوم، ومن جملتهم الملك، في حداد أيام عاشوراء على عوائد الشيعة في ذلك. لأن الملك وإن كان سنيا ومن سلالة سنّيين فإن أمّه الشيعية أعدّته، فصار يساعد الشيعة على أعمالهم، بل كان خير مساعد لهم منه مع السواد الأعظم. وقد ذهبنا بمعية السيد حسن السابق لبعض مجتمعاتهم، فرأينا بدعا وأمورا لا يقدر المسلم الغيور على التغضي عنها. منها أنهم يجعلون صور آل البيت في بعض مساجدهم ومنها أنهم يمثّلون صور آل البيت المظلومين في نظرهم، كفاطمة وعلي والحسين عليهم السلام، وصور خصومهم كالعمرين وعائشة وحفصة رضي الله عنهم، ويجعلون بين الطرفين مخاصمة، ثم يكونون هم بجانب آل البيت المظلومين في نظرهم، مما يؤدي إلى القتل تارة على ما قالوا، فتغض الحكومة نظرها عن هذه المجزرة مجاملة. ثم يجعلون في هذه الأيام اجتماعات ومهرجانات وبكاء وعويلا ونحيبا وغيره.

والملك يساعد على هذه الجموع، ويمدّها بأمواله ونفوذه، بل وربما حضر بعضَها بنفسه، ويَصْرِفُ عليها ملايين من الروبيات، وتضيع في سبيلها أموال وأوقات، لذلك كنا، بداعي الهداية والرشد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أقامنا الله فيه، ننكر عليهم هذه الأمور ونقول إنه لا ينتفع بهذه الاحتفالات ولا بما يصرف فيها

أحد، لا آل البيت الأولون ولا الآخرون، ولا تلك الأموال تنفق على الضعفاء والمستحقين باسم الصدقة وثوابها لأرواحهم، ولا ذلك في سبيل إعزاز النبي صلى الله عليه وسلم ولا آله ولا دينه، ولا شيء من الأشياء. وإنما ذلك كله بدع وعبث وضلال وخروج عن جادة الدين والمروءة والشريعة ، بل والعقل السليم أيضا. فربما كان الجواسيس يبلغون عنا هذا الكلام أو ينمّقونه لمصالحهم ضدنا، فلذلك غضوا الطرف عنا أخيراً. ومن ذلك أنهم يتخذون هذه الأربعين كلها مآتم ومباكي، فلا يعقد فيها نكاح ولا تقام فيها أفراح، ولا تعقد فيها اجتماعات، بل قالوا إنه لا ينام الزوج فيها مع زوجته. وبمثل هذه الأمور كانوا يعتذرون لنا عن عدم استقبال المِلك لنا وقته.

ورأيت ليلةً فيما يرى النائم أنيّ سقطت من شاهق عالي إلى أسفل، فأيقنت وأنا نازل بالهلاك. ولكن وقع نزولي تدريجيا، فلم يحصل لي به ضرر، وقمت سالما متعجبا. ولما استيقظت فزعا من رؤياي، قصصتها على أخي، وفهمنا منها ما وقع لنا، وهو أنه سيخيب ظننا في هذا المِلك وفي هذه البلاد، وأننا لا نحصل منها ولا من سفرتنا هذه على طائل، ولكن الله سبحانه وتعالى بلطفه الجميل يمر ذلك ملطوفا حتى لا يحصل لنا منه ضرر. فكانت رؤيانا كفلق الصبح،نسأله تعالى أن يتولى أمورنا بنفسه، ولا يكلنا لأحد سواه بمنّه.

وبعد هذه الرؤيا، أخبرنا وكيل السلطان صالح ورفيقه الوجيه البركة المسمى "بالباشا" أو "البيرباشا"أنه قبل ورودنا على بلدهم، أخبرهم بقدومنا رجل من أهل المراقبة والكشف والجذب اسمه " أحمد صاحب" ، قال لهم: " يرد عليكم فيما قرب شريفان عظيمان ما رأيت مثلهما أحدا، أحدهما أعظم من الآخر!". فلما صدق تنبّوؤه

برؤياهم لنا وأخبرونا بذلك، طلبنا منهم إحضاره لنا للتبرك به، فقالوا: " إنه لا مآوى له ولا يستقر بمكان ، وقَلَّ أن يوجد!". ثم ظفروا بـــه بعد أيام وأتوا إليا به، فإذا هو رجل مربوع إلى القصر، ذو لحية كثيفة قد خالطها الشيب وعينين حمراوين وقادتين.

فلم يمض على هذا يوم ونحوه حتى أرسل المَلِكُ الوزيرَ مـهدي يارجنك يقول:" أن جلالة الملك قد سرحكم للسفر، وأمر لكم بكراء الطريق، ويعتذر لكم في عدم إمكان مقابلته لكم الآن!". واختلفـــت الأنظار في سبب هذا الأمر. ثم إنه حصل لنا بهذا الرفض من الكـــدر والوجد والانكسار ما الله به أعلم. ثم إنهم بسبب هذا الرفض قطعـوا مؤنتنا وأنهوا ضيافتنا، ومنعوا الطعام، وأخذوا منّا السيارة، وصـــاروا يسألون: " متى تريدون السفر؟". وتبدلت معاملتـــهم الأولى معنـــا، وصاروا خائفين على أنفسهم من إيوائنا وإكرامنا السابق.

ثم إنه لم يلبث أن جاء الوزير المكرّم الآخر، وكان مســـافرا، فأرسلنا إليه وأخبرناه بالقصة، فاندهش وتعجب كل التعجب وقـال: "هذا ما لا يمكن، ولكن انتظروا مقابلتي بالملك بعد أســـبوع، وأنـــا آتيكم بالخبر اليقين!". وكان الوزير المذكور رأى التقصير من رفيقـه، فأرسل يعاتبه على إيقاف السيارة والتقصير في النفقة. ثم أمر بإرجـاع ما كان على ما كان، ورد الجميع ليقابل الملك فأحيا منا ما كان على بساط الموت. ثم رد الجواب الحاسم من الملك لنا بعد الأسبوع، فـإذا هو سلبي كسالفه. فعند ذلك آيسنا منهم وعلقنا آمالنا بالله ســبحانه وحده، وتذكرنا ما كان يوصينا به سيدنا الوالد المحترم رحمة الله عليه، يقول:" إذا دخلتم بلدا من بلاد الله ، فإياكم أن تعتمدوا فيها علـــى مخلوق، فإن فعلتم فإن الله يكلكم إليه، فلا تنالون منه شيئا، ولكـــن اعتمدوا بقلبكم على الله وحده، فإن الله يسخّر لكم عباده كلهم!".

ولما تمت مدة إقامتنا بحيدر آباد، ودعونا وسافرنا منها إلى بلدة بنكلور يوم الخميس صباحا، الساعة السادسة، ١٤ صفر عام ١٣٥٤هـ في القطار الحديدي، بالدرجة الثانية منه، بثمن قدره للراكب ٢٢ روبية.

٩- في بنكلور وميسور:

سار بنا القطار الحديدي إلى أن وصلنا بنكلور من الغد في نحو وقت ركوبنا. فكانت المسافة بين البلدين في السكة الحديدية أربعة وعشرين ساعة. وقد نزلنا بها أولا عند تاجر من الشوام، وهو السيد أديب أبو شعر الدمشقي، له هناك معمل للحلويات السكرية.

ثم ذهبنا لدار الصدارة، المسماة على اصطلاحهم بالديوان، فاجتمعنا فيه برئيس وزارة ميسور، المملكة المستقلة المحمية، وهو المسمى" أمين الملك سر مرزا محمد إسماعيل نائب وزير أعظم رئاسة ميسور بنكلور".وهو وزير مسلم،أظنه شيعي، لملك مجوسي هندوسي، عكس مملكة النظام، فإن تلك ملكها مسلم وصدرها مجوسي، وهذه بعكس تلك.ولما اجتمعنا به،وناولناه مكتوبا من حيدرآباد.رحب وأمر بإنزالنا بدار الضيافة، وأمر لنا بسيارة.

وتجولنا بالسيارة بعض الأماكن،منها القصر الملوكي، ورأينا ما فيه من الفخامة والرفعة والإتقان وبديع الرياش والأثاث، ككراسي البلور الموشات بالحرير، وأواني الذهب والفضة، والصور الفوتغرافية المجعولة في براوز الذهب والفضة، والأعمدة الرخامية، والدرج، والثريات البلورية النفيسة الملونة، والكراسي الفاخرة، والاستكمالات البلورية العديمة الوجود. أما جنيناتها الكبيرة الفاخرة البديعة الشكل والمنوال، والمقصوصة أشجارها على عدة أشكال، منها ما هو على هيأة كراسي وطيور وخبب ومنارات وطاوسات وثعابين وديوك وغير

ذلك. ثم زرنا المستشفى الإنجليزي، ثم دار الصناعة الوطنية، ثم المكتبة الإنجليزية، ثم محل التلغراف اللاسلكي، ثم مكينة الماء، ثم متحف الحيوانات المصبّرة.

وهذه البلدة، بنكلور، بلدة جميلة، حسنة الهواء، متوسطة السكان، يقطنها خمسمائة ألف، بها كثير من الإنجليز. وفيها مصيف كثير من ملوك الهند وأمرائه وأعيانه. شوارعها متقنة، بناءاتها طريفة، أكثرها بساتين وأشجار ومزارع، معتدلة الهواء صيفا وشتاء لا كبير حرٌ ولا قرٌ. فيها ما في الهند من الحيوانات والفواكه والمعادن وزيادة. وبها كثير من أغنياء المسلمين، أهل الغنى والثروة الطائلة والمحبة، غير أننا لم نجد معرفا بيننا وبينهم. بها مساجد عديدة وجملية الصنع والإتقان كغيرها من مساجد الهند. وبالجملة فساكنها، لولا ما يشاهده صباحا مساء من سحنات الهندوس، وهيآتهم القذرة المشوهة، لما ظن إلا أنه ببيروت الشام أو بمدينة من مدن أوروبا الجميلة.

ومن اللطائف، بينما أنا جالس على منفذ مطل على جنينة، إذ سمعت صيحات طيور مزعجة ومنكرة، فأدخلت رأسي بالنافذة، فإذا بطير من البابغاء كبير،وما أكثر هذا الجنس بالهند، قد انقض على آخر دونه، فصار الصغير ملقى على ظهره، قد رفع رجليه وهو يستغيث، والآخر فوقه ينتهبه يريد افتراسه، فصحنا به، فطار وبقي الآخر ملقى كأنه ميت، فأتي به، فإذا هو مغمى عليه من الفزع والخوف. وقد بقي كذلك مدة، ثم عادت له عافيته وطار.

ولما كان تاسع يوم من وصولنا، أتتنا سيارة من طرف الحكومة وأقلتنا لمحطة البابور(قطار)، حيث قطعوا لنا ثلاثة أوراق ركوب، كل واحدة بربابي ست، ذهابا وإيابا إلى عاصمة ميسور، بالدرجة الثانية. وبعد خمس ساعات ونصفها، وصلنا محطة ميسور.

فوجدنا هناك في انتظارنا رئيس بلديتها الأديب اللطيف الوجيه الشهم الغيور السيد محمد بن عباس، وهو المكلف من طرف الصدر الأعظم مرزا إسماعيل بخدمتنا والقيام بضيافتنا، فقام بذلك أيما قيام. وعنوانه معنون بهذا: محمد أبّا، أبّا منزل، أبا رود، ميسور. فرحب بنا وأركبنا سيارة، وأخذنا إلى دار ضيافة الحكومة.

ومن الغد جاء لزيارتنا الرئيس المذكور، فأركبنا بسيارته وذهبنا لزيارة بعض المحلات، فزرنا أولا محل الحيوانات، وهو جنينة واسعة جدا، قريبة من محل حيوانات مصر. فرأينا بها أنواع الحيوانات كلها. وأهم ما رأيناه السمندل الذي يأكل جمر النار والحجارة، هيأته كهيأة النعام، ويزيد عليه بقزعة مستطيلة من مقدم رأسه إلى مؤخره، وريشه أخف من ريش النعام. ورأينا بها أيضا اليربوع، (بل الكنغورو) وهو حيوان أكبر من الكلب، رجلاه أطول من يديه، عكس الزرافة، يقفز بهما قفزا،وله كيس بأسفل بطنه يحمل فيه أولاده، فيخبيهم متى أراد ويفتح لهم متى شاء، حتى إذا ما رأيته لا تظن أنه به شيئا. ورأينا أيضا نوعا من المعز، له آذان عريضة وطويلة جدا، قريب الذراع متدلية بالأرض، تذهب يمينا وشمالا. ورأينا أنواع الزرافات والسباع والطيور والقردة التي لا توجد منها بمصر، الكبار القريبة من الآدمي والصغار التي كالقط ونحوه، والسود والبيض والصفر، على اختلاف أحجامها وأشكالها. فرأينا واحدة منها تلعب" الجمنستيك" في حبال وعلاقات جعلت لها كالآدمي تماما. ورأينا أخرى ناولها شخص سيجارة من الدخان، فتناولتها منه وجعلتها بين أصبعيها وشربتها كالآدمي. ورأينا أيضا أنواع الغزلان والوعول وبقر الوحش والجواميس الأمريكية وأنواع الطاووس التي منها الأبيض السادج، يفرخون بيضة بالدجاج، وأنواع الحيات السامة، وغيرها الفيلة والبابغات وفرس البحر، وهو حيوان كبير الجثة، فظيع المنظر، كأنه

لسمنه وكبره زق سمن ذو رأس طويل عريض وفم واسع سعة مفرطة، وأنياب بارزة يعيش في البركما يعيش في الماء. رأيناهم يسفرون له بصفير خاص، وهو مغمور وسط الماء، فيخرج فيرى بيد الخادم حزمة كبيرة من الخصة فيفتح لها فاه، فإنما هو كالمطمورة، فيلقي فيه تلك الحزمة، فيزدريها كأنها لقمة سائغة. ورأينا أيضا كلب الماء يعيش في البر كما يعيش بالماء. ورأينا سلحفاة برية كالمائدة، إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر.

ومن اللطائف أنهم جعلوا بهذا المتحف رجلا قصيرا جدا من نحو ذراع، استخدم في هذا المتحف متمما لأنواعه، بمعاش قدره ٢٥ روبية شهريا. فكان وجوده هناك من جملة المستملحات. وقد كان مرافقا لنا بهذا المحل، يأمر وينهى. وهو رجل عربي الأذصل، من الحجاز. ومن لطائفه أننا انتبهنا لواحدة من تلك القرود وبين عينيها طولا خط أحمر بين خطين سوداوين. وكان هذا الشكل شعاراً لمجوس الهنود يجعلون ذلك بين عينيهم، رجالا ونساء،كأنه طقس من طقوسهم وعلامة من علامات ملتهم. فقال لنا ذلك القصير: " إن هذا (وأشار إلى الخط الموجود بين عيني القردة) هو مستند القوم إلى الهندوس فيما يجعلونه بين عينيهم!". وقد أرادوا أن يقدموا لنا هناك قرى وإكراما، فصعدوا إلى نخيل النارجيل(جوز الهند)، فتطايروا عليها لنحافة أبدانهم وخفتها كالشياطين. مع فرط ارتفاعها وضعفها عن تحمل الآدمي. فأسقطوا منها عدة نارجلات جوزات طريات، استخرجوا فيها من الماء، فنمقوا كل واحد منا بواحدة منها، وهو شراب لذيذ قوي.

ومن هناك ركبنا، وذهبنا إلى دار ضيافة الملوك، هي عبارة عن قصر عظيم ملوكي، يبعد عن البلد عدة أميال، على هضبة عالية

مشرفة على البلد، يُتلذذ ويُتسلى بمناظرها الطبيعية، قد هُيئتْ به أنواع الملاذ والراحة والرفاهية المناسبة للملوك ونحوهم كالمندوب السامي للهند. وهذا المحل غاية في العظمة، ونهاية في الرفاهية والزخرفة والإتقان وإحكام الهندسة والصناعة. وقد تجولنا في محلاته، وشاهدنا حماماته وأسرته وصالونات أكله وجميع مرافقة. وقد زينت جدرانه بأنواع الزينة والزخرفة، ومن ذلك صور ملوك الهند، ومناظره الطبيعية، ونماذج حروبه الماضية إلى غير ذلك. وقد ثبت أطراف هذا القصر بجنينة محيطة به، فجاءت على ما يناسبه من الإتقان والنظام والنضارة والإحكام. وبه تعلم مالملوك الهند المسلمين قديما من الكرم والاعتناء بالضيوف، حتى أنهم يخصصون لذلك دورا للضيافة، ويجعلون بها بما يكفي من الفرش والخدم والطباخين والزينة والرياش والأثاث، كل شخص ينزلونه فيها على حسب مقامه وما يناسبه. أما محل ضيافتنا نحن في " ميسور"، فكان عبارة عن بستان كبير خارج البلد أيضا، متصل بها، ذا دوائر متعددة لم ندخلها نحن. ومحلنا من جملة تلك الدوائر، جميل، قد استكمل شروط الراحة والرفاهية، له طباخ خاص وخدم خاصين، يسألون الضيف عما يناسبه من الطبخ والطعام والشراب والأكل، فيقدمون له في أوقاته المعلومة. ولما انتهينا نحن من الجولان في القصر الملوكي المذكور، خرجنا راجعين إلى بيتنا.

وبعد العصر امتطينا سيارتين أقلتنا، ومن معنا، فزرنا فيها الميتم الإسلامي. فسررنا بما رأيناه من نشاط الأولاد، والاعتناء بهم. وقد خطبوا أمامنا أفرادا وجماعات عدة خطب مضمنا مدح النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ والإسلام، وأنه هو دين الحق والطبيعة. فدعونا لهم وانصرفنا.

فمرت بنا السيارة لمحلة" الميمن"، وهم قبيلة شريفة من قبائل الهنود المسلمين. فنزلنا بها في جنينة عمومية هناك، حيث اجتمعنا

بالأستاذ محمد عبد السلام. وبعد التعرف به، وجدناه يعرف العربية وينتسب لسيدنا الأستاذ الشريف السنوسي، المجاهد الكبير، رحمة الله عليه.

ثم بعد مدة مضت في المذاكرة والمحادثة مع هذا الرجل الفاضل، ذهبنا إلى محل متحف الماء الذي يبعد عن البلد بنحو ١٢ ميلا. وهو عبارة عن جنينة كبيرة جداً قد جعلت عند مجمع الأنهار، ولقد لعبوا فيها بالمياه والكهرباء لعبا أيما لعب، فوّارات متنوعة في زجاجات ملونة وسط الصهاريج والمياه الصافية، ألوان متنوعة وزخارف ملفتة للأنظار في ارتفاع وانخفاض. بينما أنت نازل في الدرج البلورية،إذ تجد درجا عشرين وأكثر قد أطلقوا عليها الماء، وسلطوا على ذلك الماء شعاعا أحمر وأخضر، فينطبع ذلك اللون عليه، فتظن أن الماء كذلك. كما أنك تجدهم قد جعلوا دائرة من هذه الفوّارات، وقد جعلوا وسطها داخل الماء بلورة حمراء وخضراء، فيتشكل الماء بلونها، فتراها في الخارج قبة حمراء كأنها النار، أو خضراء كالياقوتة. أو ملونة. وهكذا شكلوا هذه الفوارات أنواعا وألوانا على هذا النمط، فكانت بهجة للناظرين. وهذا المتحف على كل من يريد دخوله أن يدفع ثلاث روبيات، أما نحن، فحيث رأوا سيارتنا حكومية لم يأخذوا منا شيئا. ويقال أن هذا المحل كان للسلطان" تيبو" رحمه الله، آخر ملوك الإسلام بهذا البلد. وهو الذي رسم بهذا المحل هذه الخطة، وكتب نظامها على حجر بالحائط، وقد رأيناه ملصوقا بالباب. وقد أراد الله أن يكون الإنجليز هو المنفذ لتلك الخطة، وهكذا بقينا نمتع الطرف، ونجيل النظر في هذا المتحف النادر الوجود. فكان يخيل

إلينا أننا في الجنة، لأنه لم يسبق لنا أن رأينا مثل تلك المناظر العجيبة المدهشة. وبعد أن صلينا هناك المغرب رجعنا لمقرنا.

ولما كان الغد، ذهبنا صباحا إلى زيارة ضريح السلطان تيبو بن السلطان علي حيدر، آخر ملوك المسلمين بهذه الديار. وكان رحمه الله مسلما عاقلا وبطلا عامل، ولكن بكل أسف نشبت بينه وبين ملك حيدر آباد الدكن حرب طاحنة، استعان فيها عليه ذاك بالإنجليز، فاضطر هذا بالاستعانة بالفرنسيس(شغل الأطفال الصغار). واتفق أن حارب السلطان تيبو هذا بنفسه فقتل، ودارت الدائرة عليه. وكانت النتيجة أن الْتَهَمَ الإنجليزُ، دمره الله، الطرفين. غير أن هذا قضى عليه وعلى بلاده تماما، وحصل الإنجليز بمحلّه ملكا مجوسيا لم يزل الملك في عقبه للآن، والآخر بقي وأولاده تحت الحماية الإنجليزية للآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وتاريخ هذه الحروب المزرية كان عام ١٢١٣هجرية. ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ....** ﴾ الخ، وتاريخه موجود مطبوع، لكنه بلسان الأردو الذي هو لسان المسلمين بهذه البلاد. وضريحه مع والده ومن معهم من الشهداء، داخل قبة فخمة لائقة بالملوك، وسط جنينة كذلك. وبلغنا أنهم يجعلون له موسما سنويا هائلا. ولكن ما الفائدة، والصيف ضيعت اللبن. وقد شاهدنا آثار بلدته القديمة، ورأينا ما فيها من القلاع والحصون والمآثر والمساجد. لكن قالوا أن الإنجليز حاكم عليها بالإعدام، بحيث كلما سقط منها شيء لا يجوز تجديده قصد إعفائها واندثار آثارها. فإلى الله المشتكى.

ولما خرجنا من هذه المحلات، ذهبنا لزيارة بعض الآثار القديمة، وهي دار حكومة السلطان " تيبو"، يشقها نهر. قالوا إن هذا السلطان كان إذا جلس بين يديه الخصمان ينظر داخل النهر فيعرف منه المحق منهما من المبطل، أي على سبيل الكرامة. وهذه الدار جاءت وسط بستان كبير، ونقشها وبناؤها ودهان جدرانها أشبه ببيوت دمشق القديمة. وقد وشيت جدرانها الظاهرة بصور الحروب والملوك والعساكر الهندية على اختلاف أنواعها. وقد رأينا ببعض سقفها عدة جبوح من النحل، حتى إنه لكثرة ما هناك من النحل انقطعت الطريق على المارّة. وبعد أن جلسنا هناك معتبرين آسفين على أحوال المسلمين، وما آل إليه أمرهم ركبنا متن سيارتنا راجعين لمحلنا.

ثم بعد العصر زرنا البلدية، ودخلنا مقر الرئيس صاحبها حيث ذهب بمعيتنا لبيته الذي جاء أيضا وسط بستان نفيس جدا. فصلينا عنده العصر، وتناولنا الشاي مع بعض الحلويات والفواكه. وبعد برهة ركبنا بمعيته إلى جبل ميسور الشهير، فشققناه بسيارتنا وسط ذلك النسيج العذب والهواء النقي الطلق، وتلك المناظر الخلابة المدهشة. فكنا تارة نمثل أنفسنا بجبل لبنان، وبنحوه من منتزهات الدنيا العظيمة الشأن، وطورا نظن أننا في جنة النعيم. جبل خصب ونبات وزهور ومناظر فاخرة طبيعية، ولا سيما بعد المغرب. ظهرت البلد في شوارعها الجميلة ومصابيحها الكهربائية كأنها سماء قد زينت بالنجوم من كثرة المصابيح والأضواء الكهربائية، وتناسقها واتساعها وانسجامها، وزادها نظارة وحسنا أن طريق الجبل الملتوية المتشعبة كلها مرصوصة بالأضواء. وهكذا بقينا إلى أن وصلنا قمة الجبل. حيث هناك نزل الملك. فدخلناه أيضا، وتفرجنا على داخله وتفاصيله، ووصلنا إلى صنم عظيم هناك، الذي هو فيما قالوا من ذهب خالص

يعبده الملك ويصرف عليه المبالغ. وشاهدنا ما شيدوا له من بنيـــان ، وما زينوه به من الأضواء الخارجية. وقد وصلنا لبابه، وأعرضنا عـــن الدخول للفرجة عليه تصونا وتكرما، لتكون بحول الله من الذين ﴿ **وَإِذَا مروا باللغو مروا كراما** ﴾، أي معرضين. وقد خالفنا بذلـــك النفـــس الأمارة بالسوء في شهوتها هذه.

وبعد أن صلينا المغرب على هذا الجبل المشرف العالي الجميـــل العديم المثال، رجعنا من حيث أتينا. ولو نعطى الخيار، لبقينا بذلـــك المحل مدة.

وبلدة ميسور هذه إحدى مناظر الدنيا، وهـــي زينـــة الهنـــد وعروسته وتاج مفرقه فيما رأينا، ذات شوارع واسعة على الطـــراز الأخير، وأسواقها وشوارعها وأطرافها كلها أشجار، وزهور ومنـــاظر يكل اللسان عن وصف جمالها. غير أنها كلها، والعياذ بالله، أصنـــام وبيوت لعبادة الأوثان، وبأحد شوارعها وساحة من ساحاتها قبة مـــن رخام بداخلها صورة والد الملك الحالي، وفوق القبة المذكورة قبة مـــن ذهب تخطف أبصار الناظرين. كما أن قصر الملك الحالي عليـــه قبـــة ذهب أيضا بوسطها فانوس(أي فنار) كهربائي تلمع ليلا، كما أنهـــا تخطف الأبصار نهارا.

وبميسور من السكان مائة ألف وعشرون ألفا من النفوس فيهم من المسلمين نحو ١٧ ألفا، والباقي وثنيون. وبها نحو العشرين مسجدا، بنى أحدها هذا الملك الوثني من جيبه الخاص، لأنهم قالوا إنه لا تعصب عنده. كما أنه بنى للمسلمين أيضا عدة مدارس، خاصة بهم، غـــير أن الجهل عم الخاص والعام. ويقطن مملكة ميسور كلها من الخلق ســـتة ملايين، المسلمون منهم أربعمائة ألف فقط. جـــبر الله الكســـر، ولم الشعث، وتداركنا والمسلمين بلطفه الخفي.

١٠- الرجوع إلى المغرب:

وعندما طال سفرنا، نفذ صبرنا ، وخابت آمالنا في هذه السفرة الطويلة رغم أننا كنا مكرمين معززين محترمين حيثما كنا وأينما حللنا، قد ألقى الله علينا سيما الإمارة والملك والجاه والإرشاد والنصح. فتارة يقال أننا أمراء كبراء وتارة سواح عظام، وأخرى موفدين لأمور سياسية.

وكل يدعي وصلا بليلى

وليلي لا تقر له بذاك

وحيث كانت هذه التقولات والتخرصات كلها دعاوي بدون دليل:

والدعاوي ما لم تقيموا عليها

بينات أبناؤها أدعياء

وفي ميسور انتهى بنا المسير والتقدم ببلاد الهند، فلنلو عنان السير راجعين من حيث أتينا، حتى نركب البحر إلى الوطن إن شاء الله. فنقول: بعد أن جلسنا بهذا البلد للعبرة وللضيافة والتفسح والنزهة فقط ثلاثة أيام، سافرنا راجعين إلى بنكلور يوم الثلاثاء صباحا ٢٦ صفر عام ١٣٥٤هـ. فنزلنا عند من كنا ضيوفا عنده أولا، وهو السيد أديب أبو شعر. فمكثنا بداره للاستراحة مدة.

ثم سافرنا راجعين إلى بومبي، فنزلنا بها بمقرنا الأول عند السيد عبد الحميد اللحام ننتظر ورود ما أرسلناه من حيدر آباد من صناديق الكتب وبعد طول مدة وصلت على حالة يرثى لها من الاختلاط والفساد. فاضطررنا للم شعثها وتجليدها، وبعد أن تم ذلك شحناها إلى الدار البيضاء من المغرب. وبعد أن تمت أشغالنا ببومبي من استلام صناديق الكتب وفتحها على ما وجدت عليه، وترتيبها وإصلاحها، ثم تجليدها وشحنها لساحل المغرب، ودعنا من كنا في ضيافته وسافرنا.

وفي أثناء هذه المدة حلّ عيد المولد النبوي (١٢ ربيع الأول، فاحتفل به أهل بومبي احتفالا لم يكن لنا به حسبان، رغما عن أن الأمطار كانت يومه كأفواه القرب. فقد احتفلوا لهذا المولد في أنحاء البلد وأطرافه. ومن ذلك أنهم اجتمعوا له في ميادين عمومية، ومساحات شاسعة مترامية الأطراف، أخبرنا أنه نصب في بعضها ثلاثون ألف كرسي للجلوس. واستدعينا للحضور في هذه الحفلة ببطاقات متعددة. ولكن منعنا من ذلك انهمار الأمطار، مع شغل النفس والبال بلوازم السفر الطويل. وقد بلغنا أنه حضر هذه الحفلة الكبرى قناصيل دول المسلمين من تركيا وأفغانستان وإيران والعراق، ونحوهم، ووقعت خطب متعددة في التنوية بالجناب العظيم الأكرم النبوي، وما خصه الله به من المزايا، وما أكرمه من التشريفات والعطايا. ووقعت خطب من هذا القبيل حتى من بعض الهندوس الوثنيين. ومن العبارات المبكية التي فاهوا بها في هذا المقام:

" إنكم يا معشر العرب والمسلمين، حين كنتم متمسكين بدين هذا النبي العربي - صلى الله عليه وسلم - سدتم وملكتم، إلى أن وصلتم بلادنا هذه وملكتموها بالعدل والدين. أما الآن فقد عدلتم عن ذلك الدين الحنيف، وتمسكتم بِمَا لم يأت به القرآن ولا السنة المحمدية، فها أمم الأرض قد أعادت كرها عليكم فامتلكتكم، ومن جملتهم نحن!"، مما أوجب بكاء المسلمين ونحيبهم. فإلى الله المشتكى.

وبهذه المناسبة نذكر واقعة بمدينة كراتشي القريبة من بومبي، وهي أن مسلما تخاصم مع هندوسي، فسبّ الهندوسي نبي الإسلام ونال من شرفه. فلم يتمالك المسلم أن طعن ذلك الوثني بخنجر كان فيه حتفه. فثارت ثائرة الإنجليز الخبثاء وألقوا القبض على المسلم، وبعد المحاكمة أعدموه. ولكنه قابل هذا الإعدام بجسارة وصبر يدلان على قوة إيمانه. فكان يظهر الفرح ويقول: " فزت والله". وكذلك أمه

كانت تتجلد وتتمنى أن لو كان لها أمثال هذا الولد الغيور المقـــدام. ولم يظهر منها أقل ضجر. أما أهل البلد فثاروا لهذه القضية، وحـاولوا إعلان الثورة ضد المستعمرين الخبثاء. ولكن الإنجليز، دمره الله، فـرق جموعهم بالسلاح وإطلاق البنادق، حتى مات منهم عدد، لأنهم عـزّل عن السلاح. وقد احتج الهنود على هذه المعاملة. ولكن الحق اليوم مع القوي المسلّح ، وويل ثم ويل لمن كان أعزلا. والأمر لله.

ولكن لم يمض على هذه الواقعة بضعة أسابيع حتى أخـــذ الله بالثار، ووقعت بالهند وقعة" الكويتا"، وهي موقع حصين على حـدود أفغانستان، للإنجليز به قوة كبيرة من العساكر والطيارات ومدخـرات الأقوات. ومن العجيب ما أخبروا به من أن حيوانات هذا المحل هربت منه نهارا إلى حيث لا يدرى، ولما كان الليل، والقوم نيام، خسـف الله بها، وجعل عاليها سافلها. وضاع فيها للإنجليز ما لا يحصـــى مـن الأنفس والعتاد، حتى نتنت تلك البقعة من كثرة الموتى غير المسـتطاع انتشالهم، وصارت لا يستطاع القرب منها لنتنها. فكان المســـلمون يرون أن هذا انتصار من الله لنبّيه ولذلك المسلم الذي قتل في سبيله.

وقد مرّ علينا ببومبي يوم وليلة لم نر مثلها في غزارة الأمطـار ، وكثرة الرعود والبرق والصواعق، حتى أيقنا بالهلاك وآيســـنا مـن السلامة. فكنا نرى أن مأساة " الكويتا" ستتجدّد ببومبي، ولكـــن الله سلّم. فالحمد لله على فضله.

واكترينا بالبابور (الباخرة) من بومبي إلى البصـــرة، ومنـــها لبغداد. ثم سافرنا على طريق الصحراء في السيارة إلى دمشق الشـــام.. ولما كان عاشر رجب عام ١٣٥٤هـ بارحت الشام قاصداً بـيروت لركوب البحر، فجلست بها أسبوعاً ثم سار بنا البابور على بركـة الله ليلة السبت ١٧ رجب عام ١٣٥٤هـ .